

اقرأ

عادل الفضبان

ليلة القفيفة

دار المعارف بمصر

ليلى العفيفة

عادل الفضبان

ليلى القفيفة

١٣٥

اقرا

دار المعارف بمصر

THE ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية

اقراً ١٣٥ - أول مارس ١٩٥٤



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

— ليلي . . . ليلي . . .

سمعت ليلي بنت لُكَيْز صوتاً يناديها فعرفت فيه صوت خالتها أمّ الأغرّ فخفت من داخل الخِباء إلى لقاء صاحبة الصوت وخرجت مهرولةً تجيب النداء تاركةً ما كانت فيه من شؤون الخِباء غيرَ معنيّةٍ بجمع شتات إزارها ولا بعقُص شعرها المسترسل على كتفها .

ولما أزاحت الستر عن باب الخِباء ونفرت منه إلى لقاء خالتها أمّ الأغرّ هابطةً إليها من الرّبوّة العالية إلى السّفح وقد تطاير شعرها الفاحم في الهواء وكشف المثرر المتراخي عن صدر كأنه قطعة من العاج نظرت إليها خالتها مأخوذةً بإشراق وجنتيها الخمريتين الملوّحتين بطلاء الشمس مكبرةً التماع السحر في عينيها الدّعجاوين معجبةً بذلك الغصن الرطيب من الصبا والجمال .

فلم تكد ليلي تصل إلى حيث كانت خالتها واقفةً تنتظر حتى حطّت أمّ الأغرّ على صخرة قريبة منها صرّة كانت في يدها وفتحت ذراعها تستقبل ابنة أختها التي حرّمها الموت

حنان الأمّ منذ سنوات . فتعانقت أمّ الأغرّ وليلى وتبادلتا
القبلات ثم حدّقت أمّ الأغرّ في ليلى طويلاً بعينين ناطقتين
بالحب والحنان وقالت :

— « واللّات والعزّى إنك لأجمل نساء العرب . . . ويا سعد
ابن عمّك البرّاق . فيومَ تُزفّين إليه يظفر بجوهرة نفيسة هي
كتر قبائل ربيعة على الإطلاق . »
فاحمرّ وجه ليلى خجلاً وقالت وهي مُطرقة تداعب خرزات
عقدها :

— « إنها عين الرضى يا خالتاه فكم مثلي في ربيعة ولئن
آثرني البرّاق دون فتيات العشيرة إنه سلك إليّ سبيل القربى
والنسب . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « ولیمَ لا تقولين إنه سلك إليك سبيل الهوى والوجد .
فما كانت القربى لتنبه قلامه من ظفرك لولا قلبه الخافق بحبّك
وهواك فلطالما سمعته يفضي بشؤون فؤاده إلى أخي كليب وأنت
تعلمين أن كليلاً مستودع سرّه ورفيقه الوفيّ الأمين . . . »
فقاطعتها ليلى قائلة :

— « ولیمَ لا تقولين يا خالتاه إن أبي آثره دون شباب
الحمى لأنه فارس العشيرة وفتاها المرجى . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « أتكرين يا ليلى أن الحبّ الذي ربط قلبيكما

بأسبابه لم يكن المدعاة إلى قبوله عروساً لك . »
 فعاودت وجه ليلي حمرة الخفّر والحياء فلم تنبس ببنت
 شفة فضمتها أمّ الأغرّ إلى صدرها ثم قالت :
 — « كاد حديثنا يا ليلي ينسيني ما جئت من أجله . »
 واستدارت إلى حيث وضعت الصرة التي كانت في يدها
 ففكّت عقدتها وفتحتها وهي تقول :
 — « أصلحت اليوم هذه الحلوى فعزّ عليّ أن أطعم منها
 أنا وأهلي ولا تذوقها . » فقالت ليلي :
 — « شكراً لك يا خالتاه فما أرى نفسي تشتهي شيئاً من
 الحلوى . » فقالت أمّ الأغرّ :
 — إنها الحلوى التي تحبّها . . . انظري . . . فهذا هو
 البّريك المصنوع من الرّطب والزّبّد . . . إنها الحلوى التي
 يفضلها أخي كليب على غيرها من الحلوى . . . ثم إنني
 جئتك أيضاً بقدر من البسيصة فرغت من صنعها منذ قليل
 وقد انتقيت لها أجود السمن والدقيق . . . » فقالت ليلي :
 — « أشكرك يا خالتي على ما تؤثريني به من فضل ومنّة
 ورعاية فما كنت لأنسى برك بي وحدّ بك عليّ منذ نعومة
 أظفاري ولا سيما بعد موت أمي . . . » فقاطعتها أمّ الأغرّ
 قائلة :

— « منذ نعومة أظفارك . . . نعم منذ نعومة أظفارك عرفت فيك هذه العفة الحمقاء وهذا الدلال المتجني فما من مرة خصصتك بهديّة من طعام أو ملبس أو حلية إلا تمنّعت وأعرضت كأنني غريبة عنك أو كأنك تخشين مني جميلاً تُكوّين بحرّ ناره فقيم هذه الأنفة يا ليلي. ومن بثّ فيك هذه الخلّة العجيبة . »
فقال ليلي :

— « هي أمي يا خالتي فقد عودتني وأنا طفلة أحبوا أن لا أمدّ يدي إلا إلى ما تعطينيه هي أو يعطينيه أبي . . . »
فقال أمّ الأغرّ :

— « لو أن حبيبك البراق أهداك هذه الحلوى أكنت تعفين عنها . »

فقال ليلي شاحخة مترفعة :

— « عفتُ عن أطيب من هذه حلوى كان في وسع البراق أن يقدمها لي منذ أن خطب يدي ووعدني أبي بزفاني إليه بعد عودته من اليمن كما أنه عفّ هو أيضاً عن حلوى كان في وسعي أن أنيله إياها في خلواتنا وعند تلاقينا في المراعي النائبة والدّانية . » فقال أمّ الأغرّ متلطّفة :

— « لقد عرفت العشيرة كلها عفاف هذا الهوى بينك وبينه فما طار لك ذكر فيها إلا وهو معطر بأريج الآس

والريحان ولا أخفي عنك أن هذه الخلّة الرفيعة هي التي حملت
العشيرة على أن تلقبك بالعفيفة فلا يذكرونك إلا قالوا :
ليلي العفيفة . » فقالت ليلي متوددة لحالتها :

— « هاتي يا خالتي حلواك فسوف ينقضّ عليها إخوتي
انقضاض الصقور الجوارح عند عودتهم من المرعى في أصيل
النهار فما أعددت لهم اليوم إلا قليلاً من السخينة ولا تحسبيني
جاحدةً فضلك وجودك غير أن قلتي على أبي بعد إذ طالت
رحلته إلى اليمن أشهراً طويلاً قد اجتثّ من صدري كل شهوة
إلى طعام وكل ميل إلى بهجة ومسرّة. هذا ويشاطرني ابن
عمّي البراق قلتي واضطرابي فهو جزعٌ على مصير أبي ضيق
الصدر بانتظار يوم الزواج . »

وعكفت ليلي على الصرة فأوثقت عقدتها وحملتها بيمنها
وتأبطت بيسراها ذراع خالتها لتسير بها إلى الحباء فقالت
هذه :

— « نفسي تحدّثني بأن أباك عائد اليوم يا ليلي فعيني
تختلج وما برحت تختلج طول الطريق وأنا قادمة إليك وهذا
دليل على أنه راجع إلينا قريباً جداً ولعلّ ركبه الآن وراء تلك
الهضبة القائمة على مرمى النظر . » فقالت ليلي :

— « ما عدتُ أومن بهذه الظواهر يا خالتاه فإني ساعة

رحل أبي قبضت قبضةً من مواطئ قدمه وعُنتُ بحفظها
في مكان أمين تفاؤلاً واستبشاراً بعوده السريع ولكن غيبته
مع ذلك قد طالت حتى أثارت في نفسي كوامن الاضطراب
والظنون . فقالت أم الأغر :

— « حسناً فعلت يا ليلي وما إخال عملك هذا إلا معجلاً
أوبته . . . ولكن علام تجزعين ونحن نعلم وأنت تعلمين أن
أباك رحل يزور عمرو بن ذي صهبان ابن ملك اليمن ويظفر
منه بالعون والتأييد بله التحف والألطف . فأبوك "لكيز أثير"
مكرم عنده ثم إن الشقة بين مضاربنا في الجزيرة وبين صنعاء
اليمن واسعة طويلة تنوء بها المذاكي العتاق وتضل فيها
الرواحل . . . » فقالت ليلي :

— « هذا ما يثير في الخوف والجزع وإني لأخشى أن
يتعرض أبي في بُعد الشقة للغزو والغارة . . . » فقالت أم الأغر :
— « أنسيت أن أباك فارس من فرسان ربيعة الشجعان
وأحد أبطالها المغاوير . . . ولكن ما لنا وللظنون . . . تعالي
نتحقق من سلامته قبل أن نسير إلى خبائك . وهياً نخرج
على تلك البئر القريبة من مضارب الحيام ونسائلها أمره وإني
لوائقة بالبشرى التي ستفضي بها تلك البئر إلينا فنعلم أنه سليم
معافى وحي يرزق . »

فهزّت ليلي رأسها شكّاً واستنكاراً فأنتى للآبار الجوامد
 أن تفصح عن شؤون الأحياء ولكنها عادات القوم تأخذ بها
 لا عن يقين واقتناع بل استرواحاً للأمل وإنعاشاً للرجاء فلم
 تجادل خالتها فيما طلبت ولا نفضت لها مكنون رأيها في مثل
 هذه العادات ولا أخبرتها أنها منذ بدأت تختلف هي وابن
 عمّها البراق إلى الراهب النصراني المقيم بأحد أطراف البادية
 فيأخذان عنه قواعد الدين بالحديد ويتعلمان منه تلاوة الإنجيل
 قد تغيرت نظرتها إلى الحياة وإلى خوارق الطبيعة وقديم العادات .
 فسارت معها إلى البئر إرضاءً لها وتعللاً بالخبر الطيب تسمعه
 حتى من ألسنة الحجارة وأفواه الآبار .

وصلت ليلي ونخالتها إلى البئر فوضعت الفتاة على الأرض
 صرة الحلوى التي تحملها بيمينها وانفلتت من ذراع خالتها
 وأقبلت على فوهة البئر فلما صارت منها على قيد شبر التفتت
 إلى خالتها مستوضحة فقالت لها أمّ الأغرّ :

— « هيا أسأليها . . . »

فأذعنت ليلي تتنازعها عوامل عدّة فمن زراية باستنطاق
 الآبار إلى رجاء بجواب مفرح يهدّي من روعها إلى نخشية من
 سكوت البئر فيكون لها من ذلك السكوت مثار إلى التطيّر
 والتشاؤم وإن لم يكن لهذا المعتقد في نفسها قوة الإيمان واليقين .

اقتربت ليلى من البئر وهي راجفة واجفة وصاحت :

— « يا لَكَيْز . . . يا أبا ليلى . . . »

فانتفضت أمّ الأغرّ مهللة صائحة :

— « إنه حيّ . . . إن أباك حيّ يُرزق . . . لقد سمعت

الصوت . . . لقد أجابت البئر . . . بشراك يا ليلى . . . هنيئاً

للعشيرة وهنيئاً لك بسلامة أبيك . . . إنه سيعود قريباً وستزفّين

إلى ابن عمك البراق . . . »

أبرقت أسارير ليلى من هذا الفأل الحسن فجرت إلى

نخالها تعانقها وتقبّلها ثم حملت صرّتها ومشّت وأمّ الأغرّ في

الطريق المؤدية إلى الحباء تتجاذبان مختلف أطراف الأحاديث .

ولم يكد المقام يستقرّ بهما في داخل الخِباء حتى تنهض

أمّ الأغرّ واثبةً إلى خارج الخِباء وهي تصيح قائلة :

— « ليلى . . . إني أسمع أصوات جلاجل . . . »

فلحقت بها فرحةً مغتبطة ورمت المرأتان بأنظارهما إلى

الأفق البعيد فلم تستبينتا طلائع ركبٍ من الرّكبان فتبادلتا

نظرات العزاء عن خيبة الأمل وهمتا بالدخول ثانية إلى الحِباء

لولا أنهما سمعتا صوت جلاجل قريب يخالطه ثغاء الغنم فاتّجهتا

نحو مصدر الصوت فإذا إخوة ليلى والبراق وكلّيب أخو

أمّ الأغرّ عائدون من المرعى بقطعان الغنم والمعزى فافترّ ثغر

ليلي عن بسمه مثل لألاء الصباح بقاء حبيبها وأخوتها ونحائها
وما عتَم هؤلاء الشباب أن وصلوا إلى أمّ الأغرّ وليلي فبادلوهما
التحيّات الطيبات وقضى الجمع ساعة في شجون من الحديث
أكلوا فيها من السخينة التي صنعتها ليلي ومن حلوى أمّ الأغرّ.
وفجأة وثبت هذه إلى خارج الحِباء وهي تقول صائحة :

— « أصوات جلاجل . . . أسمع أصوات جلاجل بعيدة . . .
ما كذّبي الحسّ هذه المرّة . . . إنها منحدره إلى سمعي من
طريق القوافل عند الهضبة العالية . . . »

فتبعها القوم وسرّهم أن يروا على مدى الأفق في ضوء
الشفق الورديّ أشباح قافلة قادمة إليهم وما لبثوا أن تبيّنوا
أشخاصها فإذا لكَيْز أبو ليلي في الطليعة مستويّاً على متن
جواده الأصهب في شكّة كاملة من السلاح ووراءه جماعة
غلمانهم يتمايسون على ظهور الإبل . فما إن تبلغ القافلة ساحة الخيام
وتبرك الجمال ويترجل لكَيْز حتى تسبق ليلي إخوتها إليه وترتمي
بين ذراعيه تغمره ويغمرها بالعناق والقُبَل . ثم يأخذ إخوتها
نصيبتهم من تحية أبيهم وتقبيله ويطوف لكَيْز بعد ذلك على
أمّ الأغرّ وكلّيب والبراق فيحيّتهم ويحيّونه ويرحبون بمقدمه
بعد غيابه الطويل .

ويسير في الأحياء خبر عودة لكَيْز فيخفّ إليه الأقارب

والخيران ورجال العشيرة ونساؤها مرحبين مسلمين ثم يرفض
 السامر وينصرف الزائرون مودعين مكررين الدعاء بسلامة
 الرجوع. وحين تنهض أم الأغرة مودعة تقول للكييز وهي تشير
 إلى ليلى والبراق .

— « لقد أطلت غيابك يا لكييز فمن حق هذين العروسين
 عليك أن تمضي عاجلاً في التأهب ليوم الإملاك ثم ليوم
 البناء فمتى يكون ذلك. عجل يا لكييز فنحن في شوق إلى
 الأفراح ويسرني أن أبذل غاية الغايات في جلوة ابنتي ليلى
 أجمل جلوة وأكملها وإن كانت يجمها الوضاح في غنى عن
 كل زينة . . . »

نحلق قلب البراق غبطةً وطرباً لدى سماعه هذا الكلام
 وأغضت ليلى بصرها خجلاً واستحياءً أما لكييز فقد توجهت
 وجهه وودع أم الأغرة وكليياً والبراق وكانوا آخر المنصرفين
 ولم يحر جواباً . . .

فرغ لُكَيْزٌ من ضيوفه وأقبل على بنيه يبشّوهم ويبشّونه الشوق والمحبة ثم أمر نفرّاً من غلمانهِ فأدخلوا إلى الحِباء صندوق التحف والهدايا التي أهداها له ابن ملك اليمن ففتح الصندوق وأخرج منه نفائس ما يحتوي وقال مخاطباً بنيه الثلاثة :

— « هذه البرود اليمانية جميعها لكم إنها من الديباج المعصّب بالذهب. وهذه الأردية المخططة بسهام الفضة والذهب هي كذلك لكم فالبسوها في أيام الأعياد والمواسم تدلّوا بها على شباب القبيلة أجمعين . » فتلقّفها الشباب الثلاثة في فرحة ظاهرة وأقبلت ليلي تتلمّسها وهي تقول :

— « إنها أجمل وأغلى ما وقعت عليه عيني من أبراد غالية . . . » فقال لُكَيْزٌ مستأنفاً ويده لا تفنأ تتناول من الصندوق تحفةً بعد تحفة :

— « وهذه الأحزمة من الخزّ هي كذلك لكم . . . ولكن ما نفع الحزام الجميل إن لم يكن مناطاً لثمين الحناجر . . . » فصاحت ليلي وصاح معها إخوتها :

— « أأهداك أيضاً حناجر . » فقال لُكَيْزٌ مبتسماً :

— « وأيّ خناجر . انظروا . . . »

وأخرج من الصندوق ثلاثة خناجر متشابهة قد صنعت مقابضها وأغمادها من الفضة المزركشة وحليت بالأحجار الكريمة ما بين أحمر وأصفر وأخضر تنبعث منها أشعة متألثة ترشق النور في جوانب الحِباء فيشوه عنده ضوء ذبالة الزيت المرتجف المتراقص .

واعتمد كل فتى منهم خنجراً من الخناجر يقلبه في يديه تارة ويجردّه من غمده تارة أخرى ويمرّ بحدّه على ظهر ظفّره ليمتحن رهافته ومضاءه معجباً برواء فرنده . وقطع لكَيْزٌ عليهم حبل إعجابهم واسترعى انتباههم وانتباه ليلي عندما أخرج من الصندوق عدّة أكياس صغيرة وأخذ يهزّها ويضرب بعضها ببعض فيسمع لها وسوسة كوسوسة الحلي أو نقر الصنوج . ففغر الأبناء أفواههم وتساءلوا مشدوهين مدهوشين :

— « ما هذا . » فقال لكَيْزٌ بعد أن فكّ أربطة الأكياس وأفرغ ما فيها :

— « هذه نقودهم يتعاملون بها ويبيعون ويشترون . أعطانيها الأمير عمرو بن ذي صهبان لأستعين بها على شراء ما يحلو لي من السلّع من تجار اليمن المقيمين أو الظّاعنين بتجارّهم عبّر الأصقاع والأقطار . »

فأعملت ليلي أناملها الجحيلة في تلك النقود وأخذت
تأملها وتحدّق فيها قطعةً قطعةً وحذا إخوتها حذوها وتعالى
صياحهم جميعاً وأنشأوا يتداولون الرأي فيها ويصفون ما يرون
منها :

- « هذا رأس صقر . . . »
- « حذار من أن ينقض عليك . . . »
- « هذا رأس ثور . . . »
- « حذار من أن ينطحك بقرنيه . . . »
- « هذه صورة هلال . . . »
- « إنه اقتبس منك الحسن والإشراق يا ليلي . . . »
- « هذه صورة بومة . . . »
- « ما أسمع هؤلاء القوم. ألم يجدوا في الطير خيراً من
البومة ينقشونها على نقودهم . . . »
- « هذه صورة إنسان . . . لعله ملك من ملوكهم
أو أمير من أمرائهم . . . »
- « ولكن أين أخفى لحيته . . . »
- « إنه استعاض عنها بشعره المصفور جدائل مرسلة
على خديّه . . . »
- « وهذه الخطوط ما تراها تكون . إنها أشبه بخطوط

الضارين بالرمل . . . »

— « إنها الكتابة التي يتفاهمون بها ويتراسلون . . . »
وبقيت ليلي وإنحوتها يتحاورون ويتحدثون ويتخلل
محاوراتهم الضحك والدعابة والعبث بقطع النقود ولُكَيِّز يفسر
لهم ما غمض من شأنها حتى قال الأخ الأصغر :
— « ليلي . . . ماذا جلبت لها معك . » فقال لُكَيِّز
وقد افترّفه عن ضحكة عريضة :

— « قل ماذا أهدى لها الأمير عمرو بن ذي صهبان . . . »
ف قالت ليلي في إباء وشمم :
— « وما شأن الأمير بي حتى يبعث إليّ بهداياه . . .
وأنيّ له أن يعرفني ويعرف بوجودي . . . ومتى كان أمراء
الحواضر والمدن يحفلون بفتيات البوادي . . . » فقال لُكَيِّز
وقد أهّمّه ما سمع :

— « وهل في ربيعة ألفُ ليلي . إنها ليلي واحدة بنت لُكَيِّز
تناقلت الركبان سيرة أدبها وكما لها وتحدثت بباهر جمالها فصار
ذكرها مسير الشمس وتطلعت إليها القلوب من أقاصي الديار
أفَيُّلامُ الأمير عمرو بن ذي صهبان إذا طربت أذنه بمحامدك
وقدرك قدرك وغمرك بالهدايا . . . »

— « فوجمت ليلي ووجم معها إنحوتها وبدد لُكَيِّز ذلك

الوجوم حينما استأنف الكلام وقال مبتسماً متهللاً وهو يخرج من الصندوق الهدايا والألطف :

— « هذي هديّتك يا ليلي . إنها مجموعة من الدّمقّس والحرير قفّريّ عيناً بها والبسيها ناعمة هائلة . إنها ضروب من الثياب الثمينة ما بين مسلسل وصفيق ومسهم ونميق وما بين حبرة موشاة ومِرط مذهب وشِعار وصدار بلغا غاية النفاسة من صناعة اليمن . . . »

فتلقّت ليلي هديّتها ساكتة غير مبتهجة وهتف بها قلبها أن وراء الهدية تضحية جسيمة وشرّاً مستطيلاً . وأحبّ أبوها أن يبعث في قلبها البهجة والحبور فقال :

— « ليست هذه البرود هي كل الهدية فإن لها لتوابع ثمينة . . . »

ومدّ يده إلى الصندوق فرجعت تحمل وشاحاً مرصعاً بالجوهر والآليّ فقدّمه إليها باسماء بسمّة الظافر في معركة . فأخذت ليلي الشاح وما وسّعها إلا أن تشي على نفاسته وثمان لآله فضحك لَكيز مسروراً مبتهجاً وقال :

— « إن غيث الهدايا لما ينقطع فلا يزال لليلي في الجراب أشياء نفيسة لا يهديها إلا الملوك والأمراء . . . »

وأعاد يده إلى الصندوق وأخرج منه دملجاً من الذهب

مرصعاً باليواقيت وقال :

— « هذا لك يا ليلي . . . »

فتبسمت ليلي وأخذت الدمليج وصاح إخوتها :

— « ما هذه النفائس يا أبي . أحلى رعاة غنم هذه أم لباس الأمراء والأميرات ؟ . » فقال لكيز ضاحكاً :

— « سننتهي عما قريب من رعي الغنم وسكنى الخيام والضرب في البوادي ولبس الوبر وأكل الثريد فإني أعددت لكم حياة تنقذكم من هذا الشظف وتغرقكم في أعطاف الغنى واليسار وكل هذا مرجع الفضل فيه إلى أختكم ليلي . . . »
فتفرست ليلي وإخوتها فيه تسأله عيونهم جليّة الأمر فكان جوابه الحاسم أن انحنى فوق الصندوق واستخرج منه عقداً نفيساً من الدرّ تسطع حباته في يديه سطوع الكواكب فقدّمه إلى ليلي وقال :

— « اخلمي عنك يا ليلي هذا العقد من الخرز والودّع وتحليّ بهذا الجوهر الغالي واقبلي هذا العقد الثمين هديةً من الأمير عمرو بن ذي صهبان ابن ملك اليمن وعربوناً على خطبته يدك . »

كانت كلمة لكيز الأخيرة قذيفة صرعت سامعيها فما لكت ليلي نفسها وقالت لأبيها :

— « أنسيت يا أبي أن ابن عمي البراق قد خطبني إليك فوعده أن تزفني إليه بعد عودتك من اليمن . » فقال لكيز :
 — « لا لم أنس ذاك ولكن أي والد عاقل يرفض مصاهرة أمير ويؤثر عليها فتى من فتیان البوادي . » فقالت ليلي :
 — « إن فتى البوادي هذا هو ابن أخيك . أتخفر ذمته وتنكث معه عهدك لأنه من جبلتنا يسكن الوبر كما نسكن . ويرعى الغنم كما نرعى . ويدود عن حمانا ببأسه وشجاعته . » فقال لكيز :

— « وإلى متى نظل نسكن الوبر ونرعى الغنم . إن حانت لنا ثغرة ننفذ منها إلى النعيم والحضر أعرضنا عنها إكراماً لفتى لا يعدم أن يجد في أحياء ربيعة عروساً صالحة . » فقال الأخ الأكبر :

— « ربيتنا يا أبي على حفظ العهود والمواثيق وإن الفتى منا ليخرج عن الحياة طائعاً مختاراً في سبيل وعد قطعه على نفسه . أتريد أن تدمغنا القبيلة بالسبّة والعار وتجردنا من الشرف الذي هو ملاك حياتنا وتقول وعد لكيز فأخلف طمعاً في قرني الملوك وتهافتاً على الذهب والجواهر يبيع بهما ابنته بيع السباح ... » وقال الأخ الأوسط :

— « ترى لو غضب البراق غضبه وألب علينا الأحياء

والعشائر أنرجو لنا فيهم نصيراً بعد أن نوصم بالعار والشنار . «
وقال الأخ الأصغر :

— « وما لنا نحزن وأمير اليمن لئن ظن أنه يشترينا بالدرّ
والذهب لقد خاب فالأخ فالبراق في أعيننا وأنفسنا خير من
ألف أمير لا نمت إليه بسبب من أسباب القربى والمحبة . «
هدأ لكيز من ثائرة بنيه وقال :

— « على رسلكم يا أبنائي ولا تضطرم فيكم حمية الشباب
فتتجنبوا سواء السبيل . إن البراق عزيز عليّ وهو ابن
أخي الحبيب الكريم وله في قلبي ما لكم من محبة وإيثار
ولكن أنصحني بأنفسنا فداه . فهذا الحب الذي بينه وبين ليلى
يذكى لهيبه القرب ويطفى أواره البعاد . . . «
فقاطعت ليلى قائلة :

— « إنه يا أبي حبّ لا يفصم عراه بيننا بعد ولا قبر
ولئن حلت بيني وبين البراق وسقتني إلى أمير اليمن لتسوقن
إليه جسداً بلا قلب ولا روح فقلبي وروحي لا ينبضان
ولا يخفقان ما حييت إلا بحبّ البراق والوفاء له . « فقال أبوها
بلهجة لطيفة وادعة :

— « لو وقعت عينك يا ليلى على ما وقعت عليه عيني في
حاضرة اليمن لما رضيت عنها بدلاً ولسرك أن تعيشي فيها زوجة

لرجل من سواد الناس . على أن الحظ واثاك فدعاك إلى أن
تكوني زوجة أميرها وأنت تتعللين وتتمنعين . . . » فقالت ليلي :
— « لا أعرف عن اليمين شيئاً غير أن الذي يدور على السنة
الركبان أن المرأة فيها سلعة ومتاع فلا يتورّع الإخوة عن أن
يتزوجوا امرأة واحدة . . . » فصاح لكيز مُخَنَّقاً :

— « هذا كلام هراء . تلك عادة قديمة أفلح عنها القوم
منذ مئات السنين وكيفما كان الأمر فليس للأمير عمرو بن
ذي صهبان إخوة ولا أخوات ولسوف تعيشين في قصره عزيزة
الجانب تمشين على بسط الديباج وتلبسين الخزّ والحرير وتتجلّين
بالدرر والجواهر وتتطيبين بالمسك والغالية وتأكلين في آنية
الذهب والفضة وتنامين على الفرش الوثيرة المحشوة بريش
النعام . . . » فقالت ليلي :

— « ثم ماذا . » فقال لكيز :

— « وأنّي سرت تحفّ بك الوصائف قائمات على خدمتك
ليل نهار وستكونين في قصر الأمير بلقيس الثانية . » فقال
الأخ الأصغر :

— « ومن بلقيس هذه يا أبي . » فقال لكيز :

— « سمعت في اليمين أخبارها فعرفت أنها ملكة عظيمة
من ملكاتهم في القرون الغواير وأنها كانت تنثر الدرّ والذهب

نثراً وتحلّي بهما قصورها ورياشها فقد قيل لي :

عرشها رافعٌ ثمانين باعاً كلّلتها بجوهر وفريدٍ
وبدرٌ قد قيّدته وياقوت ت وبالتمر أيتما تقييد

أفتردّ دين يا ليلي في أن تحلّي محلّها ونعيش نحن في
ظلالك سعداء هائثين. أم تريدن أن نظلّ في ضنك ومترّبة
نرعى الإبل والغنم ونتلمس المراعي ومساقط الماء ونقتتر على
أنفسنا الكفاف لنُدفع في آخر العام نصيبنا من الإتاوة إلى زهير
ابن جناب الكلبي عامل اليمن على نجد والجزيرة . » فقالت
ليلى :

— « هكذا خلقنا وعلى هذا سنموت. ولبسةُ الفجر في

البادية وذهبُ أصيلها المضرّج برمز جراحات أبطالنا أغلى عندي
من كنوز اليمن بأسرها. ولتُعيش طليقةٌ حرة في فضاء البادية
الواسع الرحب وفي نجادها وسهولها المطهرة بأشعة الشمس من
رجس المدن وخبائثها أحبّ إليّ من الحياة أسيرةٌ سجينّة في
غرف القصور. ولتبرّاق وهو البدويّ الجلف فارس ربيعة وفتاها
وراعي الشويبة والبعير أحبّ إليّ من أمير خَرَجٍ ما امتدّت
يده إلى سيف ولا إلى خنجر إلا ليتزيّن به ويتحلّى. وإني لأؤثر
أن أرى أبي وإخوتي سادات في عشائهم أحراراً في مواطنهم من
أن أراهم عبيداً في القصور يتصرف في عزّتهم وإبائهم أمير

من الأمراء أو ملك من الملوك . . . » فصاح إخوتها الثلاثة :
 — « نعماً يا أختاه فما نعلقت إلا صواباً . . . » فقاطعهم
 أبوهم وقال محتدّاً :

— « لقد وعدت أمير اليمن بأن تكون ليلى زوجته ولا بدّ
 من أن أصون كلمتي ووعدتي . » ثم التفت إلى ليلى وقال
 متودّداً :

— « خطبك إليّ فلم يسعني أن أرفض طلبه ولا كانت لي
 القدرة على الرفض فقد رأيت في هذه المصاهرة سعادة أقتنصها
 لك يا ليلى ونهزةً أفترصها لخدمة أهلي وقبيلتي . » فقالت ليلى :
 — « فجعلتني وجعلت البراق وقوداً لينعم بدفء السعادة
 أهلك وقبيلتك . » فقال لكيز :

— « كلاً يا ليلى فما رأيتُ أولاً إلا هناءتك وسعادتك .
 أتذكرين يوم خطبك إليّ في العام الفائت برد بن طريح
 الإيادي فرددته خائباً لأنك لم تقبلي به عرساً فتزلت عند رغبتك
 واستمعت لما تفضّيته لي من دخيلة صدرك فأثرت كما آثرت
 البراق على برد وبرد اليوم صاحب الكلمة المسموعة النافذة في
 بلاط ملك العجم . » فقالت ليلى :

— « أكنت تريدني عروساً لرجل غدّار خائن . » فقال لكيز :
 — « كلاً . وألف مرة كلاً . فلو قبلت به بعلاً لعاش

بيننا وضممنا إلينا قبيلة إيراد فكلنا من صلب معدّ ولما تمرّغ
 في حمأة العجم يأساً وانتقاماً ولكن دعينا من شأنه فقد عوّضت
 عنه بخير منه وبخير من ابن أخي البرّاق فأنّت عروس الأمير
 عمرو بن ذي صهبان وعدته بذلك ولا بدّ من الوفاء بوعدى
 هذه كلمتي الأخيرة وسوف أحملك إليه طائفة أم عاصية .
 فقالت ليلي وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

— «لتكن مشيتك يا أبي فليست ليلي إلا ابتك المطيعة ...»
 فأقبل عليها يقبلها ويحبس في عينيه دمة حرّى كادت
 تنحدر على خديّه ثم انقلب كلٌّ إلى فراشه يجرّ الخطى إليه
 جرّاً تاركين فأنخر البرود ونفيس الحلى منطرحة على أرض
 الحباء تتلصّص عليهم عيون جواهرها وترقب منهم الحركات
 والسكنات ...

استأق لكير إلى فراشه وطارت نفسه في جواء الفكر
كل مطير وأخذ يسائل نفسه أترأه ظلم ابنته وفلذة كبده
بإصراره على ما فرضه عليها . أترأها تعيش في قصر أمير اليمن
عزيزة كريمة أم يستبد بها الأمير بعد مباهاج الأيام الأول
وتخبو في صدره جذوة الرغبة فيها فيستحيل شأنها إلى شأن بعض
الحواري والإماء ويهمل رعايتها فتحيا حياة كلها نكد وأحزان .
وكيف تستطيع ابنته ليلي فيما يعرفه فيها من نفس حساسة وعزّة
 وأنفة أن تدعن لمثل ذلك المصير . إنها لا بدّ "مُحدثة" أمراً
تدوي به أرجاء اليمن أو إنها قد تنطوي على نفسها مستسلمة إلى
الهم والشجن يقرضان قلبها وينهشان روحها وسلمانها إلى تراب
القبور .

وصل لكير في تفكيره إلى هذه الخاتمة المفجعة فانتفض
في فراشه وهمّ أن ينهض منه ويجري إلى ابنته ويقول لها :
لا كان أمير اليمن ولا كانت هداياه ولا كانت كنوزه وقصوره
وحسبك أنك أميرة البادية يحيطك فيها ابن عمك البراق بالحلب
والرعاية وتحفّك العشيرة بالتجلة والإكرام فعذراً يا ابنتي إذا

طرحتك في مطارح الشقاء وقبلت خطبة أمير اليمن دون تبصّر
ولا رويّة .

وينتفض هنا انتفاضة أخرى يكاد يمزق معها ثيابه
وجسمه ويقول في نفسه هائجاً ثائراً أتراني كنت أستطيع أن
أرفض طلب الأمير وأزدري نعمته الضافية في حين تلقيت
عنها أطيب التهنّئات . أكان يسعني حيائي على أن أعتذر إليه
وهو من هو مقاماً ورفعة شأن وأنا لم أرحل إليه إلا لأخطب
ودّه بل لألتمس رضاه وعونه على ما نحن عليه من مظالم عامله
وبأساء الحياة . عجباً لابنتي وأبنائي يتعامون عن هذا النعيم
الوضّاح في سبيل عاطفة تختلج في جوانح ليلي والبراق وأغلب
الظن أنها عاطفة القربى والحدّاث فلا يصعب أن يضحّى بها
طلباً للعزّ المقيم والثراء العريض والنعمة الوارفة . لالا يالكيز إنك
لم ترتكب إداً ولا عقلت البنوة وإنما التمت لابنتك وأهلك
وعشيرتك الخير والرزق والسند القوي .

وكأنما ارتاحت نفسه لهذا الحكم الذي اختتم به مناجاة
ضميره وكأنما وعثاء السّفر قد فعلت فعلها في جسمه المتعب
فاستسلم للنوم وغرق في سبات عميق .

أما أبناؤه الثلاثة فكانوا هم أيضاً فريسة الهواجس فلم
يذوقوا طعم الرقاد إلا في الهزيع الثاني من الليل فقد عزّ عليهم

أن تُطعن أختهم هذه الطعنة النجلاء في قلبها الخفّاق بحبّ
البرّاق وعزّ عليهم كذلك أن يقلب أبوهم لابن عمهم ورفيق
طفولتهم وشبابهم ظهر المِجنّ ويفضّل عليه أميراً لا يعرفونه
ولا يشاكلهم في العاطفة والمعاش .

وأكبروا أن تقابل العشيرة أباهم بما لا يحبّ إذا هي عرفت
غداً أنه نكث وعده وأخفر ذمة البرّاق فما من فتى ولا شيخ
فيهم إلا ويعدّ البرّاق فخر القبيلة وحامي الزمار .

ولم يحتفل هؤلاء الفتيان الثلاثة في تفكيرهم واضطراب
نفوسهم بكنوز أمير اليمن ولا بجاهه ومجده وقوّته مثل احتفالهم
بعبرات أختهم الوالهة وصيحات البرّاق إذا ركب الغضب وصاح
في الأحياء حيّ على الثار . إنهم لا بدّ ناصرون أباهم ظالماً
أو مظلوماً ولكن بأيّ قلب وبأيّ ساعد يجرّدون سلاحهم في
وجه حبيبهم ونخدن صباهم .

وما زالوا على مثل هذه الهواجس والمخاوف حتى غلبهم
النعاس على أمرهم فناموا .

وأما ليلى فلم تذق طعم الكرى طول الليل ولا غمض لها
فيه جفن كأنّ فراشها حشيرة من قتاد تتقلب عليه معذّبة
متألّة .

هاها أن ترى قصور أحلامها قد انهارت بلمحة عين

وأن يكون أبوها هو الذي هدّها بيديه الغاشمتين . لم تفكّر فيما
ينتظرها من نعيم في قصر عمرو بن ذي صهبان أمير اليمن
ولا أغرتها كنوزه التي رأت شعاعاً منها فيما قدّمها لها من حلي
وحلل ولا أدركتها الشفقة على نفسها بعد إذ قدّرها أن تعيش
في تلك الديار النائية بلا قلب ولا عاطفة تجرّ الحياة فيها
سلسلة شقاء وغمّ ثقيلة الحلقات . وإنما انحصر فكرها في حبيبها
البراق فأشفقت على نياط قلبه أن تتمزّق حسرةً وأسىً
وخشيت أن يتّهمها بالغدر والخيانة مع أنها الوفيّة لعهد الصداقة
الهوى والوداد .

وكانت كلما ذهب بها الفكر إلى غير البراق عاد بها
إليه فتخيّلته إزاءها تقدح عيناه بشرر الغضب والاحتقار
وتنفرج شفّته عن أقسى ألفاظ الملامة والعتاب فتثور ثائرتها
وتنقلب من جنب إلى جنب وتدسّ رأسها تحت وسادتها هرباً
من تلك النظرات القاسية المستعرة بجمرة السخط حيناً والمعبرة
عن ذلة الاستعطاف حيناً آخر تخترق فؤادها في جنح الدجى
البهيم .

فإذا هدأ روعها قليلاً دمعت عينها وانحدرت عبراتها
على خدّيهما فشربتها في صمت وسكون وأروت بها غليلها
الملتهب وتذكّرت الأيام الحلوة الحميلة التي قضتها والبراق منذ

عهد الطفولة والحب الأخوي إلى عهد الشباب والحب القوي
العنيف .

تذكرت أحداثها وحداثته كيف كانا يرعيان فيها البهم
معاً ويمرحان في الأودية والغابات تقاسمه طعامها ولكن إذا
شاء أن يقاسمها طعامه أبت ونفرت منه نفور الحشف الشارد
فيلحق بها وتنتهي المطاردة بينهما بأن يتدحرجا معاً على العشب
الأخضر النضير .

تذكرت عند بلوغ أشدهما وانعقاد تاج الشباب على
مفرقيهما كيف كان يغار على سمعها فلا يبدؤها بالسلام إذا
التقى بها ولا يسعى إلى نخلة معها تحت خيمة من الحمائل
أو وراء ملتف الشجر وغائرات الصخور حتى ظفر بوعد أبيها
فعرف رجال العشيرة ونساؤها أنه عروسها المنتظر .

تذكرت مبلغ نخوته وفضيلته وكيف كان ينافسها في
العفاف والإباء إذا تلاقيا في معزل من الناس وبث كل
صاحبه غرامه وصبايته فما بدرت منه يوماً بادرة تجرح العفاف
وتخدش التصون فقد كانا كلاهما فرسي رهان في كبح جماح
الشباب وإغرائه لا رقيب عليهما إلا العفاف وإلا التجلة التي
كانت توازن حبه وهواه .

تذكرت كيف كانا في العهد الأخير يجلسان معاً تحت

ظلال الأراك يحلمان بالسعادة وبينان مقاصير الهناءة في
جنتات الحب والهيام ويرتقبان اليوم السعيد الذي يصبحان فيه
زوجين أمام الله والناس كما علمهما ذلك الراهب النصراني
الذي كانا يترددان عليه في صومعته الفينة بعد الفينة .

تذكرت كل هذا وأكثر من هذا وعرضت لحياتها حتى
تلك الساعة في البادية فتجلت لعيني بصيرتها ناضرة
كالريحان ملأثة كوجه الربيع صافية كقطرات الندى على
ما اعتورها من قسوة العيش في الإقامة والظعن والتعرض لغارات
الخصوم والأعداء .

وحانت من فكرها التفاتة عارضة إلى حياتها المقبلة فبدت
لها جافة يابسة كالهشيم كالحبة كآسدا ف الظلام كدرة رنية
كالماء الآسن مازجه التراب وغشته الطحالب وبدت لها سجناً
برياش من الحرير وقضبان من الذهب .

وساءها أن يكون أبوها سبب نكبتها ونكبة حبيبها ولكنها
أمسكت عن أن تناله بلام فما حرك شفتيه بالرضى إلا موقناً
بأنه يعقد لها السعادة والنعم ولئن لم يشاورها على عادة أهل
البادية كما شاورها يوم خطبها إليه برد بن طريح إن بُعد
الشقة وجلال النعمة السانحة فضلاً عما تعرفه فيه من حياء
العدراء كل هذا جعله يقبل طلب الأمير ويظن أنه يحسن صنعا .

فإن جرت الرياح بما لا تشتهي فما الذنب ذنب والدها وإنما هو وحي سوء طالعها فلا معدى لها عن طاعة أبيها وإعداد نفسها لاستقبال حياتها الجديدة وفيّة مطيعة لزوجها العتيد واهبة إياه كل ما تملك من بواعث إسعاده وإن كانت لا تملك أن أن تهبه قلبها الجريح .

وآلت على نفسها حلقة صادق أن تعفّ عن زخارف الحياة في قصر صنعاء حتى يبلغها أن حبيبها البراق قد سلاها وسلا هواها واستعاض عنها بعروس أخرى توطي له أكناف السعد والهناء .

وعندما انتهت إلى هذا النحو من مغالبة النفس وإقناعها كان الفجر قد انبلج وبدأت خطوطه الوردية تتسرب إلى لبلى من شقوق الحباء فوثبت من فراشها ومضت تعدّ طعام الإفطار لأبيها وإخوتها .

ولما اجتمعت الأسرة في الصباح لم يعقب واحد منهم على حديث الليل خشية إذكاء النار المتوارية تحت رماد الصبر والاستسلام وإنما دارت أحاديثهم على مختلف المسائل .

وحين تضرب الضحى أطناها يكون إخوتها الثلاثة قد غادروا الخيام إلى المراعي وتكون ليلي قد تركت هي أيضاً الحباء وذهبت تتوغّل في الحقول تجمع منها بعض الكما

فلا يبقى في الخباء إلا لكيز يتولى فيه بعض الشؤون ويستقبل
رجال العشيرة.

وفي الجانب الآخر من الوادي المتناثرة فيه خيام ربيعة
قضى البراق ليلته فريسة الأرق والتفكير فإنه بعد أن حيا أباه
وإخوته واستلقى إلى فراشه حاول هو كذلك أن ينام فما استطاع
فبقي طول الليل ساهداً الجفون ساهر العين يقيمه الفرح ويقعده
ويحول بينه وبين لذة الوسن . وفيم يطلب لذة الكرى وهو
من الفرح الفياض والأمل الباسم والهناء الموعودة في بهجة
لا تعادها بهجة وفي لذة ترفرف فيها روحه وتسبح بها في
سموات النعيم .

تنقل فكره من فرحة إلى فرحة وطار على أجنحة الآمال
يستشرف غده السعيد وما تخبئه له الأيام في مطاويها من
عيش ناعم هنيء في جوار حبيبته ليلي العفيفة الوفية المحبة
المخلصة .

وبقي على هذه الحال من الغبطة الجارفة حتى علق فكره
بأمر نغص عليه أحلامه العذبة وأثار في نفسه الشكوك والظنون .
فقد ذكر أن أم الأغرة رغبت إلى عمته لكيز وهي منصرفة أن
يعجل في تحديد يوم الإملاك فيوم البناء وأنها في شوق إلى
الأفراح وإلى جلوة ليلي أحسن جلوة وذكر أن عمته لكيزاً لم يجب

أم الأغرّ ولا أعرب عن رأيه فيما رغبت إليه فيه . ولقد كان رنين
كلماتها حلواً على مسمعه فتزل برداً وسلاماً على فؤاده فلم
يفطن إلا الساعة إلى صمت عمته وإمساكه عن الجواب . فما من
شكّ أن وراء الأكمة ما وراءها وإلا فعلام سكوت عمته
وإحجامه حتى عن شكر أم الأغرّ على عاطفتها الجميلة .

ضاق صدر البراق بهذا الذي نتج عنه تفكيره فأخذ يضرب
أخماساً بأسداس ويتلمس العلة وراء سكوت عمته فلا يجدها
ويغوص في متاهات الظنون فتزیده ضلالاً فوق ضلال .

ولمعت في خاطره ذكرى برد بن طريح الإيادي فجنى
جنونه وأنشأ يسائل نفسه أتراه لحق بعمته إلى اليمن وعاد الكرة
في مبتغاه وأمعن لديه في ضروب التحبّب والإغراء حتى قبل
عمته أن يزوجه ليلي . ولكن أينقض عمته ويبرم في مثل هذا الأمر
الجلل دون أن يشاور ليلي وهي صاحبة الحل والعقد في زواجها
وانختيار العروس الكفء الكفيّ ولا سيما أن ليلي لم ترض ببرد
ابن طريح زوجاً يوم هبط إلى العشيرة في العام الماضي
ونخطبها إلى أبيها فكيف يرضى اليوم ما رفضته هي بالأمس .

ودار في خلوده أن ليلي قد تكون انساقت إلى رغبة أبيها
وقد يكون أبوها شاورها على بعد المزار وأرسل إليها بعض الرسل
في ذلك . ولكن لا فما نزل بالجزيرة أحد من اليمن في هذه الحقبة

التي غاب فيها عمّه عن أرباض الجزيرة بل إنه ليذكر كيف كانت ليلى قبيل رجوع أبيها قلقة مضطربة توجس خيفة من غيابه الطويل . ولئن صحّ كل هذا لتكوننّ ليلى قد غدرت به وكتمت عنه خفيّ أمرها وأظهرت له غير ما تضرمر ومعاذ الهوى والشرف والعفاف أن تنزلق ليلى إلى هذا المنزلق فما عرف فيها إلا شريف الحلال ومستقيم القصد وعفيف المرام وإنه ليجترح شر الحرائر إذا عزا إلى ليلى غير ما يعرفه فيها من شيم وشمائل أو راودته المظنة في حبها ووفائها .

وكأنما لسعته أفاعي هذا الجرم فهبّ من فراشه مضطرباً مذعوراً وهو الذي لا يعرف الاضطراب والدعر إلى قلبه سبيلاً فخرج من خبائه يلتمس في محيّا الفجر الزاهر تبديد هواجسه الغائمة وارتشاف ندى السكينة والعزاء من مقلة الصباح .

ويشاء حظه العاثر أن تزداد مخاوفه ضغناً على إبتالة فلا يكاد يخلص إلى خارج الحباء حتى تقع عينه أوّل ما تقع على شجرة من شجر الخلاف^(١) فيريد وجهه وينكمش قلبه ويوقن بسوء المنقلب ويرى في تلك الشجرة التي طالعت نذير السوء .

(١) صنف من شجر الصفصاف يورق ولا يثمر .

أفليس شجر الخلاف في عاداتهم ومصطلح أمرهم سبيل
القطيعة ورمز الهجران . لقد تحقق إذن من قطيعة ليلي وهجرانها
وهذه الشجرة العاقر هي الدليل .

وفاضت به غلواء نفسه وجيـشان صدره فراح يذرع الأرض
الممتدة حول خبائه ويقيسها بخطواته الصارمة جيئةً وذهوباً
لا يستقر ولا يهدأ .

وكان الصباح قد غمر الهضاب والبطاح بالألاء ضيائه
وبدأت الحركة تدب في الأنخبة والخيام وعمدت يواقظ الطير
تهجر أعشاشها مصفقة بأجنحتها مترنمة بأصواتها . وكان البراق
لا يزال يدق الأرض بنعله الغليظة في خطوات فساح فمر به
غراب ينعب فقامت قائمته وصاح في الغراب : « طائر الله
لا طائر ك » واستدار على عقبه عائداً إلى خبائه حزينا أسفاً .
فهذا غراب البين ينعب في أذنه وينذره بالقطيعة فقد وضع
الأمر واستبان للذي عينين وقامت عليه الأدلة . فمن صمت
عمه عن جواب أم الأغر إلى شجرة الخلاف رمز الهجران
والخفاء إلى نعب الغراب المنذر بالبين والرحيل .

وتزدا دنفسه هما وغماً ويزداد يقينه بالخطب المرتقب
عندما يصطدم بثالثة الأثافي من نذر الشؤم في ذلك الصباح .
فبينما هو منقلب إلى خبائه رأى كلباً أتر يرود حول الخباء

فقال في نفسه لقد كملت النذُرُ فالناس تتطير من الكلب
الأبتر إذا لمحتة عن بعد فما بالك إذا جاء إليك يبصبص بذنبه
المقطوع ألا إن المصيبة واقعة لا محالة.

ودخل إلى خبائه هائجاً هياج الثور لا يدري على من
يصب جامات غضبه الذي يغلي في صدره غليان القدر فوق
مارج النار ولا إلى من ينسب نخبة أمله في الحياة كأن
لا جدال في تلك النخبة المرة والنقمة القاتلة .

سرى نبأ خطبة ليلي إلى أمير اليمن عمرو بن ذي صهبان
 في أحياء ربيعة مسير النار في الهشيم فكان حديث الناس
 في خيامهم ومراعيهم تتناقله الأفواه وترويه الألسنة في روايات
 متباينة ويعلق عليه الرواة وفق أهوائهم ومتضارب عواطفهم .
 تلقّت النساء الخبر إلا أقلهن في كثير من الحسد والأمل
 وفي قليل من الابتهاج فقد كانت كل فتاة تود لنفسها مثل هذا
 السعد الصارخ . أمّا وقد فاتها فلا أقلّ من أن تمنى النفس
 بتطلع البراق إليها وانتخالها دون فتيات الحمى عروساً أثيرة . وكانت
 النساء ممن تربطن بالبراق أو بليلى صلة رحم وقربى وعلى
 رأسهن أمّ الأغرّ باديات السخط والغضب يتناولن لكيزاً بالنقد
 اللاذع وينحن عليه باللائمة .

وانقسم الرجال في هذا إلى فريقين : فريق يرجو من
 هذه المصاهرة أن تخفّ عن كواهلهم إتاوة زهير بن جناب
 الكلبي عامل ملك اليمن على الجزيرة وأن تفتح لهم أبواب الرزق
 في أرجاء اليمن فيستغيضوا عن الغزو وارتباد المراعي بتسخير
 إبلهم في نقل السلع من اليمن إلى ما جاورها أو ابتعد عنها من

البلاد فقد كان يبلغهم أن القوافل لا تفتأ ترتاد ربوعها خفاف
 الجيوب وتعود منها مملوءة ثقيلة محملة بالبخور واللبان والمر
 والخشب أو بالعاج والذهب والحجارة الكريمة . وفريق وفي
 طليعتهم أبو البراق وإخوته وصديقه الحميم كليب وأخوه المهلهل
 عزت عليه جفوة البراق ونكت عهده وهو فتاهم وحبيبهم
 وفارسهم المغوار كما عز عليهم بئين ليلى وهي فتاتهم الأدبية
 الحصيفة العاقلة ودرّة قبيلتهم المتألقة . وكذلك شق عليهم أن
 يركب لكيز هذا المركب الوعر وهو سيدهم وحكيمهم المشهور
 فيهم بالفضل والنبالة فتوقعوا أن تقوم الفتنة بين لكيز وأخيه
 أبي البراق وأن يندلع أوارها إلى أحياء ربيعة فيتنافر الرجال ويحكمون
 السلاح فيما بينهم فيولغ الأخ في دم أخيه ويتحاجز أبناء الأعمام
 ورجال القبيلة الواحدة فتسيل دماؤهم على ظبي الرماح وشفرات
 السيوف وهم أحوج ما يكونون إلى الألفة والوحدة درءاً لغارات
 الأعداء وإبقاءً على عزّة القبيلة وقوتها .

وعبثاً حاول الحكماء من رجال القبيلة أن يشنوا لكيزاً عن
 عزمه فما أجدت مساعيهم فتيلاً وكانوا كلهم في دهشة من
 سكون البراق وآله ولا سيما أن قد مرّ على عودة لكيز من
 السفر وانتشار الخبر في الأحياء عدة أيام فأشفق القوم أن
 يكون ذلك السكون هو الهدوء الذي يسبق العاصفة فقرّر قرار

كليب وأخته أمّ الأغرّ أن يحاولا المحاولة الأخيرة ثم ليكن ما يكون .

نحفت كليب وأخته أمّ الأغرّ إلى لكيز في ضحى أحد الأيام فألفياه عند باب الحباء يسرح النظر فيما حوله من غياض ويبدو عليه الدهول والتفكير العميق فبادرته أمّ الأغرّ قائلة :

— « عم صباحاً أيها السيد الكريم . » وأردف كليب تحية أخته بتحيته وقال :

— « عم صباحاً أيها السيد السند . » فالتفت لكيز إليهما كمن أفاق من حلم وقال :

— « عمي صباحاً يا أمّ الأغرّ وعم صباحاً يا كليب . أهلاً بكما ومرحباً . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « وأين ليلي . » فقال لكيز :

— « أخذت مغزها وذهبت ترتاد بعض الحقول وسترجع عما قليل . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « ذهبت لاشك تسري عنها همها القاتل . يا لها من شقية مسكينة . » فالتزم لكيز الصمت ولم يجب فقال كليب :

— « جئناك يا لكيز يحدونا الأمل الأخير أنك مصغر لرجاء القبيلة مثلاً في رجائنا وهو أن تعدل عما صممت عليه

وتزوج ليلي بالبراق . » فقال لكيز :

— « رجاء حبيب إليّ ولكن لات ساعة رجاء . . . »
فقلت أمّ الأغرّ :

— « كيف يطاوعك قلبك يا لكيز ومنزلة ليلى منك ومنا
في الصميم أن تمزق قلبها وتدمع عينيها وتقضي على أملها الباسم
وشبابها النضير . » فقال لكيز محنقاً :

— « كنيّ يا أمّ الأغرّ عن قوارص الكلم فما تونخيت إلا
سعادة ليلى وكرامة القبيلة فيما فعلت . » فقال كليب :

— « أليس من كرامة القبيلة أن ترعى فتاها وفارسها
وتنبيله رجاءه المشروع . » فقال لكيز :

— « أتريدني يا كليب أن أنقض عهداً أبرمته أنا وأمير
اليمن وأن أفرط في هدية ابن الملك . » فصاحت أمّ الأغرّ :

— « إنها هدية البراق لا هدية ابن الملك . » ثم قال
كليب :

— « أما من سبيل يا لكيز إلى الرجوع عما في نفسك . »

فقال لكيز :

— « هذا ضرب من المحال فقد وعدت وعليّ البرّ

بالوعد . » فقال كليب وقالت معه أمّ الأغرّ :

— « ولماذا وعدت . » فقال لكيز :

— « غلبني الحياء فأذعنت . » فقال كليب :

— « ألا تؤثر أن تحقن الدماء في قبيلتك. » فقال لكيز متعجباً :

— « وفيم تراق الدماء . » فقال كليب :

— « حفاظاً على شرف البراق وآله . » فقال لكيز :

— « أكاشفك البراق برغبته في الثأر . » فقال كليب :

— « كلاً . غير أنني أتوقع أن يثور ثورته ويتصر له آله

وبعض رجال العشيرة . » وأردفت أم الأغر :

— « هذا لا شك فيه . » فتبسم لكيز ابتسامة صفراء

ولاح في عينيه بريق الفخر والنصر وقال :

— « اطمئنا بالآل ولتطمئن معكم العشيرة كلها فلن يجرّد

أحد حساماً ما دام البراق وهو فارس ربعة لا يريد ذلك . »

فقال كليب :

— « وأنّى لك أن تأمن بجانب البراق وهو من تعرف إباءاً . »

وشرفاً وشجاعة . » فهزّ لكيز رأسه وبدت على وجهه مظاهر

الآلم وقال :

— « لقد كان هنا منذ قليل وضرب لي أروع الأمثلة لسمو

النفس ومكارم الأخلاق . إنه ابن أخي وأنا أعرف الناس

به . » فصاحت أم الأغر متعجبة :

— « أوجاء إليك ودخل خباءك وحدّثك وجهاً لوجه بعد

لطمتك إياه . إن هذا هو العجب العجيب . » فقال لكيز :
 — « سمعت الألسنة تلوك الوشايات وتخوض في الأعراض
 وأدركت أننا سنكون جميعاً حطب الفتنة ووقودها فدعوته إليّ
 بعدما بدا لي من تعنت أبيه وإخوته وأطلعته على دخيلة نفسي
 وبينت له أنني أخذت بطلب أمير اليمن فما استطعت له ردّاً
 وبصّرتّه بالمنافع التي تجنيها القبيلة من جرّاء هذه المصاهرة
 فقد نحلّ محلّ بني كندة حلفاء اليمن وقد نعود إلى منازلنا الأولى
 في تهامة ونمدّ سلطاننا على نجد والحجاز . . . قلت له كل
 هذا فسألني :

— « وليلى . أها يد في اختيار أمير اليمن زوجاً لها . » فقلت :
 — « لا . وإنما فرض عليها فرضاً فضحّت بنفسها وبحبها
 لك فدى العشيرة . » فارتاح قلبه وقال :
 — « ليكون ما أردت يا عمّاه . أما أنا فساأخذ نار الفتنة وأذرّ
 عليها الرماد . . . » ثم أطرق هنيهة وغمغم بينه وبين نفسه
 وقال :

— « ولكنني راحل بأهلي عن الديار ولن يحول مخلوق
 بيني وبين هذا الرحيل . »

فتبيّنت مضياء العزم في عينيه فسكت ونهض إليّ فقبّلني
 وقبلته ودعا لي بالخير ودعوت له بالسلامة والسلوان وانصرف . «

فانهالت عبرات أمّ الأغرّ على وجنتيها فمسحتها بكمّ ثوبها
وقالت :

— « إذن قضى الأمر . » ورّدد كليب في غصّة ولوعة
كلمة أخته وقال :

— « إذن قضى الأمر . »

وأقبلت ليلي في تلك اللحظة فحيّت الزائرين وأدركت من
وجومهما ومن أثر الدّمع في وجنتي خالتها أمّ الأغرّ أن هنالك
أمراً يشغل منهما البال ويعصف بالقلب فأمسكت عن السؤال
حتى أخبرها أبوها بمسعاهما الحميد وجوابه الحاسم فقالت بلهجة
حازمة :

— « شكراً لك يا خالتاه وشكراً لك يا خالي . . . اطويا
البساط عن هذا الشأن وليكن ما تجيئنا به الأيام . . . »

وعندما يتمّ أبوها حديثه فتعلم ما جرى بينه وبين البرّاق
تعلو وجهها الورديّ غلالة من صفرة الأسى ويحزنها أن يرحل
البرّاق عن عشيرته ويضرب في البلاد مهيض الجناح مكلوم
الفؤاد غير أنها التمسّت شيئاً من العزاء وراحة الضمير لما علمت
أن الريب لم ترق إليها في خاطر البرّاق وأنه ينزّرها عن الغدر
والخفاء ولشدّ ما أكبرت فيه الخلق العالي والنفس السامية والقلب
الكبير بعد إذ عرفت أنه إنما يرحل عن الديار تجنباً للفتنة وإبقاءً

على هيبة أبيها لكيز وقطعاً لدابر التخرّص والأقاويل . فهمت
بالكلام فما استطاعت فقد خنقتها العبرة وعصر قلبها الألم
فنابت العيون الدامعة عن الألسنة الناطقة وما استطاع حتى
لكيز وكليب أن يجبسا دمة حرّى انفلتت من الجفون لتدل
على مقدار الأسى والحزن في بكاء الرجال .

واستأذنت أمّ الأغرّ وكليب في الانصراف فشيّعهما
لكيز وليلى فانطلقا عائدين إلى مثواهما في كآبة ظاهرة وحزن
عميق .

ولما بلغا في طريقهما خيام البرّاق وأهله طرقت مسامعهما
أصوات جدال محتدم فأيقن كليب أن القوم في ثورة وتمرد
ونخشي أن يقرّ قرارهم على رأي لا تؤمن فيه العواقب فأوعز
إلى أخته أمّ الأغرّ أن تتابع السير إلى المثنى وأنه سيلحق بها
عما قريب بعد أن يطالع القوم لعله ينحمد فيهم ثورتهم
المتأججة .

فسارت أمّ الأغرّ في طريقها ودخل كليب على خيمة
البرّاق فوجد فيها صديقه البرّاق قد جلس إلى جانب أبيه
في صدر الحباء وتفرّق أخوته الأربعة في الزوايا وعلامات
الغضب مرتسمة على وجوههم فحيّاهم وحيّوه حتى إذا استوى به
المقام سمع أبا البرّاق يقول :

— « لقد طال جدالنا يا أولادي في غير رأي أجمعنا عليه
فلو أن أخي لكيزاً شاء العدول عن عزمه لفعل فحتّاماً نصبر
على الضيم فالتمسوا إذن ما يكون فيه صلاح أخيكم أبي النصر
البراق وسلامة أعراضكم من العار. » فقال ابنه عمرو :
« تخيّر أبا عمرو فأنت مخيّرٌ » وصرّح بما أحببته في أبي النصر* »

ثم تكلم ابنه غرسان وقال :

« لكل امرئ رأي له ومشورة ومجنبة فيما يشا ويشيرُ
وما من فتى إلا له من أموره مقاصد فيها لا يزال يسير
فإن يرد البراق شيئاً فإننا نسارع فيما يشتهي ونطير
وإن لم يرد شيئاً فما بعد قولكم وها هو عليكم حاكمٌ وأمير

وهمّ ابنه الظليل أن يقول كلمة فلمح كليب في عينيه
أنه سيدعو إخوته إلى الطعن والضرب وسيسحب الذيل على رأي
غرسان الذي وكل الأمر إلى أخيهم البراق فاعترضه كليب
وقال :

* أبيات الشعر في هذه القصة منسوبة إلى قائلها ومنقولة عن كتاب « شعراء
النصرانية » ج ١ للأب شيخو وعن كتاب « الجمهرة » لعمر بن شبة وهو مخطوط
محفوظ بدار الكتب المصرية برقم ١١٩٤ أدب .

— « نعم الرأي رأي غرسان فالأمر موكول إلى البراق فليقتض فيه بما هو قاض وعلينا أن ننزل على حكمه طائعين ... »
جرؤ كليب على أن يقول ما قال لأنه كان قد عرف من لكيز أن البراق مصمم على الرحيل ولكنه كان حائراً في سكوته على حين يُرغى إخوته ويزبدون .

وقبل أن يردّ أحد على كليب نهض البراق فاشترأت إليه الأعناق وتعلقت بشفتيه الأبصار وكان قد لزم الصمت طول الجدل لما كانت نفسه عليه من وجد واضطراب فقال :

— « شكراً لكم جميعاً على حميتكم المضطربة ومحبتكم الخالصة على أنني لا أريد أن تشتعل نار الفتنة في القبيلة من أجلي ولست أرى في هذا الأمر العارض إلا خطة واحدة تنهج ألا وهي . . . »
فصاحوا كلهم بلسان واحد :

— « ألا وهي . . . » فقال البراق :

— « الرحيل . . . » فردّوا جميعاً :

— « الرحيل . . . الرحيل . . . » فقال أبوه روحان :

— « وإلى أين يا برّاق . . . » فقال البراق بعد تفكير

قليل :

— « إلى بني حنيفة قومنا في البحرين . . . » فقال إخوته

بصوت واحد :

— « إلى بني حنيفة . . . إلى بني حنيفة . . . »

واغتبط كليب بما رأى وسمع وإن يكن قد عزّ عليه أن يفارق صديقه الحميم البراق بن روحان فقال في نفسه : الرحيل ولا الفتنة . ثم ودّع القوم وانصرف تتنازعه العواطف المضطربة المتضاربة .

وفي صباح اليوم التالي قوَّض أهل البراق خيامهم وشدّوا رحالهم وجمعوا إبلهم وسواثمهم وساروا ظاعنين يتقدّمهم البراق على مهرته «شبوب» فمخرجت القبيلة عن بكرة أبيها تودّعهم وتشيعهم بالحسرة البالغة والدمعة المكتومة فازدحمت المسالك والشعاب بالرجال والنساء وامتلأت بهم ساحات الخيام وأخذوا يحيّون الراكب الراحل ويخصّونه بحمائل الوداع .

وتبلغ أصوات الجلاجل المعلقة بأعناق الجمال مسامع لكيز وليلى وإخوتها فينفرون إلى خارج الحباء ويشرفون من على الطريق تسير فيه القافلة الظاعنة فما هي إلا دقائق حتى تصل مقدمة الركب إلى سفح الربوة المنصوبة فيها خيام لكيز فيصبح هذا بملء صوته :

— « مع السلامة يا أخي روحان . . . » وتصبح ليلى

بصوت متهدّج :

— « مع السلامة يا روحان . . . »

فيقف البراق مهرته ويردّ هو وأبوه على التحية وتلتقي
نظرات ليلي والبراق فتسري في جسديهما رعدة يخفق لها القلب
وترتجف الأوصال .

يحدّق البراق في ليلي بعد أن توارى عنها وتوارت عنه منذ
رجوع أبيها فيأخذه جمالها المشرق وما هو إلا شعاع من نفسها
الوضاءة وكمالها الوضاح وعقلها الثاقب ويذكر أن هذا الكثر
قد كان له فانتزعت منه الأيام ويودّ قبيل الرحيل الذي لا لقاء
بعده لو يقبل موطئ قدميها ويتزوّد بحفنة من التراب الذي
تمشي عليه .

وتحدّق ليلي في البراق فيأخذها منه شبابه الغضّ المئلق
في محيّا ويهزّ قلبها جماله المتألّي في بريق عينيّه السوداوين
الحميلتين وشعاع جبينه الناضع وخدّيه الناضرين وشفتيه
الرقيقتين تفتّران عن أجمل ابتسامة إذا ابتسم ويملأ عينيها
وفؤادها منه رجولة بادية الأجلاد في منكبيه العريضين وصدره
الواسع وذراعيه المفتولتين ونفس تعرفها فيه لا تبالي الأخطار
ولا تخشى الردى فتدرك في تلك اللحظة الرهيبة أنها إنما تشيع
حشاشتها فتودّ لو عصت أباها وجرت إلى البراق تقول له :
ابق يا براق ولا ترحل فأنا عروسك وأنت عروسي .

ولكن هيهات فيها هي ذي القافلة تستأنف السير

وهما هو ذا البراق يلوح لها ولأبيها وإخوتها بيده مودعاً وهو
يحث مهرته على المسير فتفيض نفسها حشرات وتغروق عيناها
بالدموع وتقول :

« تزود بنا زاداً فليس براجع إلينا وصال بعد هذا التقاطع
وكفكف بأطراف الوداع تمتعاً جفونك من فيض الدموع الحوامع
ألا فاجزني صاعاً بصاع كما ترى تصوب عيني حسرة بالمدامع »
وتجد القافلة في السير ويرجع المودعون إلى مواطنهم وتبقى
ليلي جامدة في مكانها شاخصة ببصرها إلى القوم الراحلين
حتى اختفوا وراء الآكام ولفتهم الأفق بحجابه ومحا منهم حتى
الصور والأشباح . . .



توالت الأيام على ليلي بعد رحيل البراق رتيبة قاحلة تقوم فيها على خدمة أبيها وإخوتها وتدير شؤونها وشؤونهم على النحو الذي ألفته وألفوه منها . وكانت كلما اتسع لها وقت من أوقات الفراغ اعتمدت مغزها ومضت تغزل صوفها على ربوة من الروابي أو في غابة من الغابات تتحرك يداها في غير ما وعي ولا توجيه وتنقل بصرها فيما حولها من مراعٍ ومروج فلا يقع منها على شيء كأنها تراها ولا تراها . وكانت البقاع التي تؤثرها بالمحبة والزيارة تلك البقاع القائمة على الطريق التي سلكها البراق متجهاً إلى البحرين فلطالما تمشّت فيها أو جلست فوق هضابها وهي تسرح النظر في الأفق البعيد وتتخيله سينشق عن وجه حبيبها البراق عائداً إليها وحده أو راجعاً على رأس قومه حتى إذا استيقظت من غفوتها الحاملة وطالعتها الحقيقة بوجهها الدميم جفلت وارتاعت وانطلقت منها الزفرة تلو الزفرة .

وكثيراً ما عرّجت على المكان الذي نكان مضرب خيمة البراق تطيل النظر إلى ما تركته الخيمة المقوضة من نُؤي

وأحجار ومن ثغرات في الأرض كانت مربوط العمدة والأطناب
ومن أثاف سود كانت تشبّ في جوفها النار وتغلي فوقها القدر
التي كان البراق يأكل منها ويُطعم فتبتل عيناها بالدموع
وتمشي على تلك الأرض الحبيبة مترفة خاشعة يعبث بفؤادها
التذكار وتسحقه أثقال الحنين . فكم استسلمت في ذلك المكان
إلى المناجاة وقالت في نفسها :

هنا الأريكة التي كان يجلس عليها وينام ... هنا موضع نعله
... هنا صوان ثيابه ... هنا مجمع أسلحته ... هنا مغسله ... في هذه
الزاوية من الحباء كان يعلّق جلود الوحوش التي اصطادها وسلخها ...
سعداً لك يا أرض الحبيب لقد نعمت بقربه وهنّت بإيوائه
وكنّت أنا على قاب قوسين أو أدنى من مجيئي إليه والعيش
في جانبه أبداً العمر فوق سطحك المبسوط ولكنه فارقني
وفارقت بعد إذ حال بيننا ضعف أبي وذهب الأمير فكلانا
الحريب المحروم وكلانا الشقي التاعس المهجور ...

وكانت لا تفتأ تردّد في نفسها مثل هذه الخواطر إلى أن
يفاجئها قادم أو تنذرها الشمس بالمغيب فتعود القهقري إلى
خبائها لتلقى فيه أباه وأخوتها .

وكان أبوها قد راجع نفسه فيما رآه من شحوب ليلي وسكوتهما
الناطق بالهم والأسى وعرف أنه ظلمها إذ فرّق بينها وبين

حبيبها البراق وأهداها إلى أمير اليمن فتباطأ في تجهيزها للسفر
 رجاء أن يستبطل الأمير قدومها فيعدل عنها إلى أخرى من
 العرائس . وأنهى لكيز إلى أمّ الأغرّ بما جال بخاطره وانتواه
 فأمنت على رأيه وضاعفت عنايتها بليلي وحدها عليها لعلها
 تنسيها البراق وتشفيها من داء حبه وغرامه فقد كانت مقتنعة
 فيما بينها وبين نفسها أن أمير اليمن لن يعدل أبداً عن ليلي
 فالرجال تواقون إلى كل جديد فتقاعس لكيز عن تجهيز
 ليلي إلى الأمير من شأنه أن يزيد الأمير رغبةً في ليلي وحرصاً
 على الاستئثار بها . وكان كل أملها معقوداً على خوارق السماء
 وأعمال الجن والملائكة الذين يأتمرون بأوامر اللات ومناة والعزى
 وينتهون بنواهيهم فلا عجب إذا عمدت إلى نذر النذور للآلهة
 ووعدتها إياهم بالذبائح والعتائر إذا هم انتزعوا حب البراق
 من قلب ليلي أو إذا هم أوحوا إلى أمير اليمن بنفض يده من
 ليلي والعدول عنها إلى سواها من العرائس . ولا عجب إذا عمدت
 أمّ الأغرّ أيضاً في سبيل تحقيق هذه الغاية إلى ما تعرف من
 رقى وتعاويد .

استيقظت أمّ الأغرّ في صباح أحد الأيام مسرورة
 فرحة مفترّة الشجر بسامة العينين وذكرت حلماً بهيجاً كان
 سبب فرحها وحبورها فقد رأت فيما يراه النائم أن البراق عاد إلى

الديار وتزوج ليلي بعد معارك طاحنة خاض غمارها ورجع منها منصوراً ظافراً. وعبثاً حاولت أمّ الأغرّ أن تذكر هؤلاء الأعداء الذين قهرهم البراق ونكل بهم فلم تسعفها الذاكرة فعدّت عن معرفتهم وما حفلت إلا بتلك العاقبة السعيدة التي رآتها في الحلم فسارعت إلى حبرتها واشتملت بها وركضت تخبر ليلي بذلك الحلم الجميل وتلتمس فيه الفأل الحسن. وما همّها أن يصحو إخوتها كليب ونويرة والمهلهل فلا يجدوها ولا يجدوا الطعام معدّاً يتبلّغون به عند الإفطار فيخبر ليلي بذلك الحلم يجبّ ما عداه من فروض وشؤون .

مضت أمّ الأغرّ لا تلوي على شيء وتريد أن تسابق الطير إلى ليلي فكانت تتعثر وتنهض ولا يقفها ألم ولا وجع . ويبلغ بها اللهاث مبالغه فلا تخفّف السير ولا تمشي الهوينى . ويلعب نسيم الصباح بحبرتها وشعرها فلا تكثّر له ولا تعنى بإصلاحهما حتى إذا كادت تصل إلى الساحة التي كان البراق وأهله ضارين فيها خيامهم تملكها الدهشة فقد لاح لها عن بعد في تلك الساحة شبح يطوف بالأنقاض والدمن فوقفت وفركت عينيها لتتحقق من أنها غير حاملة فوثقت بما رأت وقالت : أترأه البراق قد عاد . إذن لقد صبح حلمي . فصاعفت الخطى حتى بلغت الساحة فالتفت الشبح على صوت خطاها

فإذا الطائف ليلى تحييا قائلة :

— « عمي صباحاً يا خالتاه . »

فجرت أمّ الأغرّ إلى ليلى تعانقها وتقبلها وتقول لها :

— « كنت ذاهبة إليك يا ليلى . » فقالت ليلى :

— « على الرحب والسعة يا خالتي ولكن ما الذي حملك

على هذا البكور »

فقالت أمّ الأغرّ :

— « اجلسي يا ليلى أحدثك خبر سعيد

فأل عظيم »

فأتت ليلى بحجرين ووضعت أحدهما على مقربة من الآخر

فجلست أمّ الأغرّ على حجر وليلى على الآخر وأنشأت أمّ

الأغرّ تقصّ على ليلى حلمها السعيد وتزوّقه بما شاءت من

البهرج والزخرف وتدخل في روع ليلى أنه حلم ستحققه الأيام

عن قريب فما كذّبت لها الأيام قط حلماً . فتبسمت ليلى ابتسامة

حزينة قادرة في نفسها لخالتها تلك العاطفة الحميلة المشوبة

بالسذاجة والاعتماد على الأحلام وقالت :

— « أضغاث أحلام يا خالتي . » فصاحت أمّ الأغرّ :

— « كلاً وألف مرة كلاً . إنها حقيقة واقعة . أتريدين

أن تثبتي من صحتها . انظري . »

وكانت الشمس قد بدأت تلوح في الأفق وتمزق أشعتها
كبد السحاب . وكانت الطيور قد أخذت على دفء الشمس تنفر
من أعشاشها فوق نضار أمّ الأغرة على طائر استوى على غصن
شجرة فتناولت حصاة وزجرتها بها إبطير عن الغصن فصفتق
بجناحيه وسنح يمينا فكد يغمي على أمّ الأغرة من شدة الفرح
فاستجمعت قواها وكادت تطير هي طرباً والتفت إلى ليلي
تقول وهي ترقص :

— « رأيت يا ليلي . إنه طائر سانح أرانا ميامنه ولم يرنا
مياسره فاستبشري خيراً وارقدي على هذا الفأل الحسن حتي
يتحقق . »

ولقد رأت ليلي في سنوح الطائر مجلبة للاستبشار وإن
تكن على غير عادات قومها لا تحتفل بمثل تلك المظاهر
ولا تعيرها ما يعيرونه إياها من خطر وجلالة . وكانت تعلم أن
دون عودة البراق إليها نخرط القتاد حتى لو عدل أمير اليمين عن
الزواج بها فقد نزع البراق عن دياره مجروح العزة ولكنه
انطوى على جراحه كرمأ ونبلأ فلو قيل له بعد اليوم هذه ليلاك
يا برّاق عد إليها واقبلها عروساً لك لمنعه الإباء والأثقة عن أن
يلبي النداء فلم يبق إلا أن تدعو له ولنفسها بالسلوان . . .

لم تشأ أمّ الأغرة أن تنتزع ليلي من تفكيرها فلما أطالت

التأمل والتدبر أهابت بها صارخة :

— « أهناك مجال أيضاً للتفكير يا ليلي . »

فحدتْها ليلي بما يساورها من مخاوف وما إن ذكرت لها أنها تدعو له ولنفسها بالسلاوان حتى هبت أم الأغر واقفة وأمسكت ليلي من يدها وقالت لها :

— « تعالي معي فعندي دواؤك . »

ومشت بها راجعة إلى ديارها سالكة بها درباً ملتوياً خشية أن تلتقي في طريقها بأخيها كليب أو أحد من أخوتها الآخرين حتى انتهت بها إلى بقعة نائية فجلست إلى الأرض وأجلست ليلي إلى جانبها وقالت لها :

— « انظري ها هنا . »

فأمعنت ليلي النظر حيث أشارت نخالتها فرأت بعض أعواد من الشجر قد غرست في الأرض على شكل دائرة ورأت نخالتها تبحث تلك الأعواد من مغارسها فقالت لها :

— « ما هذا يا نخالتي ولماذا تنزعين هذه الأعواد . »

فقالت أم الأغر :

— « إنها العلامة التي وضعتها لأعرف مقر الخرزة الدفينة . »

وشرعت أم الأغر بعد أن انتزعت الأعواد تمحضر بيديها وتجلو عن الحفرة التراب حتى عثرت على ما تبتغي فحدقت

فيه وأشرق وجهها وقالت وهي تري ليلي الخرزة التي استخرجتها من التراب :

— «ها هي ذي . لقد اسودّ لونها فلا يبقى إلا أن نسحقها ونصبّ عليها ماء المطر . » فقالت ليلي . :

— « وفيمَ كل هذا . » فصاحت أمّ الأغرّ مدهوشة :

— « ألم تحدّثيني عن رغبتك في السلوان . إني امرأة أستبق الحوادث فقد قدّرت هذا وأنحذت هذه الخرزة الشفافة واسمها " السلوانة " وطمرتها في التراب فإذا اسودّ لونها وقد اسودّ وسحقت وصبّ عليها ماء المطر نجم عن هذا كله شراب السلوان يشربه المبتلى بحب إنسان فيسلو من يحبّ ويشفى من داء الغرام . » فصاحت ليلي مذعورة خائفة :

— « لا . لا . لا أريد أن أشرب من ماء السلوان . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « أتظنّيني أكرهك عليه . سمعتك تتمنّين السلوان فأعددت لك عدته . أمّا وقد سلوت عن السلوان وهكذا العشاق الأوفياء فلتحمل الجن هذه " السلوانة " اللعينة . »

وأتبعت القول بالعمل وقذفت الخرزة بكل ما تستطيع من قوة في الفضاء الواسع ثم مالت على ليلي وهي تقول :

— « إنك لعلّ صواب يا بنيّ فما شأننا نحن والسلوان في

حين أن الحلم الذي حلمت به يؤكد لي رجوع البراق وزفافك إليه . » فقالت ليلي :

— « أما زلت يا خالتي تؤمنين بالأحلام وتحسبونها حقائق الحياة . » فقالت أم الأغرّ :

— « عجباً لك يا ليلي أتشكين في الأحلام . وفي الأحلام التي أراها أنا في منامي . ألم أخبرك أنها ما كذبتني قط . » فابتسمت ليلي ولم تجب فقالت أم الأغرّ :

— « هيا بنا إلى العراف فلعلك تصدّقينه إذا كنت لا تصدّقيني . » فقالت ليلي :

— « رحماك يا خالتي فما شأن العراف ونخدايا القلوب وما شأن العراف ومعرفة الغيب الذي لا يعرفه إلا الله . » فقالت أم الأغرّ :

— « إنما العراف ينطق بلسان اللات والعزّى . هيا بنا إليه ولا تزيد . »

فطاوعت ليلي نخالتها مستسلمة ومشّت وإياها في منعرجات ودروب حتى إذا طال بهما السير وبدأت أم الأغرّ تشعر بالتعب والكلال التفتت إلى ليلي وقالت :

— « مكان العراف لا يزال بعيداً على أنني أعرف في هذه الناحية عرافة على جانب كبير من الحنق والدراية فما قولك

لو انتهينا إليها فإني ما قصدتها قط إلا كشفت لي حجب الغيب
وأسراره . » فقالت ليلي متبسمة :

— « أنا رهن إشارتك يا خالتاه فافعلي ما بدا لك . »
فقال أمّ الأغرّ :

— « ولا سيما أن النساء هن أحفظُ للسرّ . »

وبعد دقائق معدودات وصلت أمّ الأغرّ ويلي إلى خباء
حقير جلست عند بابه عجوز شمطاء وامتدت أمامها رقعة
مملوءة بالرمل متناثر فيها الحصى فحيّتها الزائرتان فردّت على
التحية بصوت غائر في بطون السنين التي تحملها في شعرها
الأبيض ووجهها المتجعّد وعروق أناملها البارزة وقالت للزائرتين
دون أن ترفع إليهما النظر :

— « اجلسا غير مأمورتين . »

جلست أمّ الأغرّ على عقدة من جذع نخلة وجلست ليلي
على مقعد صغير مصنوع من أعواد الشجر كانا يجوار العجوز
وافتمحت أمّ الأغرّ الكلام قائلة :

— « جئناك يا خالة لتكشفي لنا عما يخبئه الغيب لابنة أختي
من أسرار . اكشفيها لنا على علائها ولا تخفي عنا شيئاً مما ترين . »
فقال العجوز :

— « تعودت الصدق والصراحة ولن أحيّد عما تعودت . »

اقتربي مني يا فتاتي وابسطي لي كفك اليميني . «
فبسطت ليلي كفها اليميني فأمسكت بها العجوز وأخذت
تتفرس فيها ملياً وتقرأ خطوطها وتجلس بأصبعها المرتجفة بعض
الأنامل والجوانب من كف ليلي البضة الحميلة. ثم تركت العجوز
كف ليلي وهي تهز رأسها وانثنت إلى رقعة الرمل أمامها ورفعت
منها الحصى وأمرت كفها على وجه الرمل فصقلته وشرعت
تخط فيه خطوطاً متوازية فمتعاكسة ثم تمسح براحة يدها ماخطت
وتعيد الكرة على أشكال متغايرة. وبقيت على هذه الحال ساعة
من الزمن لا تنطق بحرف ولا ترفع عينيها عن رقعة الرمل
ولا تفك تقطيب حاجبيها حتى ارتاحت إلى شكل من أشكال
الخطوط فإذا هي تؤلف مربعات في جانب وحلقات في جانب
آخر. ثم تناولت عدداً من الحصى وزعته على بعض تلك المربعات
والحلقات وأسندت رأسها إلى كفها اليسرى وأطالت التحديق
في الرمل والحصى والأشكال التي رسمتها بإصبعها وعمدت إلى
بعض الحصى فنقلته من موضع إلى موضع. ولما فرغت من عملها
رفعت رأسها وحدثت ليلي بنظراتها طويلاً وقالت :

— « أبشري يا فتاتي . . . »

فأطلقت أم الأغرة من صدرها تهدة عميقة
بعد إذ كانت طول الوقت كاتمة أنفاسها تنتظر أن تنفرج

شفتا العجوز عن الخبر البهيج المفرح . أما ليلي فكانت في عالم آخر من الأوهام والأحلام فأيقظتها كلمات العجوز من غيبوبتها فتبسمت شاكة مرتابة . وتابعت العجوز كلامها فقالت :

— « ستناين ما تعلمين به . » فقالت أمّ الأغرّ :
 — « بوركت من عرّافة . . . هاتي . . . هاتي . . .
 هاتي أسرار الغيب المفرحة . »
 فقالت العجوز :

— « ولكن دون تحقيق أحلامك عواصف وزوابع . »
 فقطبت أمّ الأغرّ حاجبيها ثم أبرقت أساريها ومالت على ليلي توشوشها قائلة :

— « ألم أقل لك إنه سيخوض المعارك ويعود منها ظافراً منصوراً . » فهزّت ليلي رأسها ومضت العجوز في كلامها فقالت :

— « هناك حبيب تحبّينه ويحبّك . وهناك رجل يرغب فيك ولا ترغبين فيه . وهناك غير واحد يتمناك ويهوى وصالك . ولكن سيتغلب الحبيب إذا بقي على هواك وسيخيب الراغب فيك ويتنحّى عنك لمن هو أقوى منه فلا بدّ من الاعتماد على الرّقى لتضميني النصر وتفوزي بالمراد . » فصاحت أمّ الأغرّ :

— « هاتي من رُقَاك يا خالة ولتكن قوية كالجبال عاصفة
كالزوابع مرهفة كمواضي السيوف . »
فأحنت العجوز رأسها علامة الاستجابة وطلبت من ليلي
أن تمدّ كفها اليمنى فمدتها فتناولتها العجوز بيمنها وأطبقت
عليها بيسراها وقالت :

— « لنبدأ بالعدو المريب . ردّدي معي هذه الرقية :
”أَخَذْتُهُ بِالْفَطْطِيسَةِ . بِالشُّوْبَا وَالْعَطْطِيسَةِ . فَلَا يَزُلُ
فِي تَعْسَةِ . مِنْ أَمْرِهِ وَنَكْسَةِ . حَتَّى يَزُورَ رَمْسَهُ . “
فردّدت ليلي ما سمعت كلمة كلمة ثم استأنفت العجوز
كلامها وقالت :

— « ولنثنّ بالعروس الحبيب . ردّدي معي هذه الرقية
فن شأنها أن تسدل الأستار والحجب بينه وبين كل امرأة
سواك فيعيش ويموت على حبك وهواك . قولي معي :
”هَوَّابَةٌ هَوَّابَةٌ . الْبَرْقُ وَالسَّحَابَةُ . أَخَذْتُهُ
بِمَرْكَنٍ . فَحَبَبَهُ تَمَكَّنَ . أَخَذْتُهُ بِإِيْرَةٍ . فَلَا يَزُلُ فِي
عَبْرَةٍ . جَلَبَتَهُ بِإِشْنِي . فَقَابَهُ لَا يَهْدَا . جَلَبَتُهُ
بِمِرْدٍ . فَقَلَبَهُ لَا يِرْدُ . “

فأعادت ليلي هذه الرقية لفظاً لفظاً وحرفاً حرفاً وقلبها يخفق بالأمل
والاستبشار مكنتهما فيه الرقى والطلاسم على غير إيمان بها ولا يقين . . .

واستمرت الأيام في جريانها فلا أمير اليمين استعجل
لكيزاً في إيفاد ليلي إليه ولا البراق توالى على القبيلة أخباره . فإن
سرت ليلي بسكوت الأمير فتمت في فؤادها غراس الأمل فقد
كانت على اضطراب وقلق من انقطاع أخبار البراق وإغفال
الركبان نقل الأنباء عن مضطربه وأحواله .

ولأنها بلحاسة إلى أبيها لكيز في عصر يوم من الأيام
ينتظران أوبة أخوتها من المراعي إذ أقبل الأخوة في قلقٍ بادٍ
ومشغلة ظاهرة فقال كبيرهم بعد أن حيّا وجلس :

— « لقد وقعت الواقعة يا أبي . » فقال لكيز :

— « خلاك ذمّ ياولدي فأبي واقعة تعني . » فقال الابن

الأكبر :

— « الفتنة بين ضبيعة وسدوس . » فقال لكيز :

— « ومن أصلى أوارها . » فقال الابن الأوسط :

— « الحارث بن عباد فقد قتل الفضيل بن عمران . »

فقالت ليلي :

— « ولماذا قتله وفيم قتله . » فقال أخوها الأصغر :

— « انتهى إلينا أن الحارث بن عباد كان يرقب قنصاً له على الماء ليرميه بالسهم فجاء الفضيل بن عمران وارداً فقال الحارث : " أمسك عليك يا فضيل ولا تفرع قنصي حتى أرميه بالسهم . " فأفرع الفضيل القنص فقال الحارث : " بالله لا أخطيء سهمي فيك . " فرماه الحارث بالسهم فكان سببه . »

وبينا كان لكيز وأبناؤه يتداولون ويتشاورون في ذلك الحادث ويقدرّون له العواقب وينظرون في كيف يحسم الشرّ وتستأصل الفتنة دخل عليهم كليب وأخواه نويرة والمهلهل فحبّوا وجلسوا وقال كليب :

— « يا سيد العشيرة جئناك نأتمر بأمرك فإن قلت لنا : اجنحوا إلى السلم جنحنا لها وإن قلت شمرّوا للحرب شمرّنا ونخضنا عجاجها بسواعد قوية وقلوب لا تهاب العدى ولا ترهب الموت . » فقال لكيز :

— « أفي وقعة ضبيعة وسدوس تحدّثني فقد علمت أمرها الساعة . » فقال كليب :

— « أجل يا لكيز . » فقال لكيز :

— « ما أراها بالأمر الجلل . تتحمّل ضبيعة دية القتل فإن اشتطّت سدوس في الطلب ساعدنا سدوس على الدية وقضينا

على الشرّ والفتنة . » فقال نويرة بأخو كليب :

— « لقد صرح عمران بن نبيه أبو الفضيل القتيل أنه لا يرضى بالدية ولا يرضى بالحارث بن عباد يسلم إليه فيقتله بولده وإنما هو يطلب رأس أخي كليب أو رأس البرّاق ولا يرى غيرهما كفوّاً لولده حتى إن سدوساً تناقات شعره الذي يقول فيه :

بالله ما الثّار في حارٍ ووالده ولا أخيه ولكن في ابن ر وحن
أعني الفتى السيّد البرّاق سيّدهم وفي كليب وذاك السيّد الثاني
والله لا رضيت نفسي ولا قنعت حتى أرى الخيل تسعى في الدم القاني »
فقال ليلى ثائرة غضبي :

— « وأين البرّاق منا ليقتله بولده فلو كان فينا لألقمه السيف وحشاً فيه بالتراب . أمّا وقد شحطت به الدار وشطّ المزار فرجاؤنا معقود على كليب الفارس المغوار فهو كفيل أن يقود جموعنا إلى النصر والظفر . ولست أرى الدية ولا المهادنة كاحجة من عمران بن نبيه جماحاً . . . » فقال كليب :

— « الرأي ما رأيت ليلى فما لنا غير الحرب من جواب فعمران لا يفتأ يكرر القول بأنه لا يرضى بولده غير البرّاق وغيري فقد قال ما سمعتم من أخي نويرة وقال أيضاً بعد ذلك :
لعمرك ما ثاري إذن في حويرثٍ ولكن ثاري في كليب بن وائل

وإلا الفتى البراق فارس قومه فذاك نظير الفضل عند الحصائل
أأقتل ضبعاً من ضباع بضيعم سلالة أبطال كميّ حلال
سأسعر في أبنا ربيعة غارة بكل ردينيّ من السمر عاسل
فقال كبير أبناء لكيز :

— « إنه يعرض بنا ويتحدّانا فلا مناص من أن نهرع
إلى سيوفنا لنردّ على دعواه الصاع صاعين وأنت يا كليب
فارسنا بعد البراق فانهض إليها نهض معك مكافحين
مستبسلين . » فقال لكيز :

— « وبماذا أجاب الحارث بن عباد عن ذلك الشعر الذي
يزري به ويعدّه من سقط المتاع . » فقال نويرة أخو كليب :
— « أجابه بكلام طويل فيه عزة وفيه إباء وفيه زهو وفخار
بالبراق وكليب فقد ختم شعره قائلاً :

وأنت إلى البراق بالقول مسرع فويحك من برّاق يوم التنازل
سيشهدها البراق وشكاً بقومه ويشهدّها أيضاً كليب بن وائل
فقالت ليلي :

— « ما أراه إلا استجار بالبراق وكليب فكأنه بهذا الشعر
قد عقد طرف ثوبه إلى طنّب بيت كليب أو بيت البراق
ولا معدّي لهما عن إجارته . » فقال لكيز :

— « على رسلك يا ليلى . وعلى رسلكم يا أبنائي جميعاً . لئن
نحن نصرنا ضبيعة وهي بطن منا لتتفرنّ طي إلى نصره سدوس
فهي بطن منها بل لتتفرنّ قضاة أيضاً ولنكوننّ قد أذكيناها
حرباً ضرّوساً . »

فقال كليب :

— « البادي أظلم يا سيّد العشيرة . »
وقبل أن يفتح لكيز فه ليردّ على كليب دخلت أمّ الأغرّ
على القوم وهي تلهث وقالت :

— « البدار . البدار . ألبت قضاة وطي وسدوس
الجموع فقد علمت الساعة ممن لا أشكّ في صدق روايته أنهم
يشمرون للفتنة ويأخذون في إضمار الخيل وصقل السيوف
وتقويم الرماح ونفض الدروع فإن لم تسمروا لها أخذنا على
غرة . . . » فقال لكيز :

— « أواثقة أنت يا أمّ الأغرّ بنهوض طي معهم فيبتنا وبين
نصير بن لهم زعيم الطائيين نسب ما إخاله يفصم عراه بله
أنه خال البراق . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « كل الوثوق فقد روى لي الراوي أن نصير بن لهم قد استفزّ إلى
الروع استفزازاً بمكيدة من مكاييد النساء تنقصه وتضع من شرفه
ونسبت فيها فعلة السوء إلى أخي المهلهل . » فقال هذا مدهوشاً :

— « وما تلك يا أختاه . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « حدثني المخبر الصدوق أن جماعة من نساء طي ممن أوغر الحسد والحقد صدورهن على البراق ولبلى لإعراض البراق عنهن ولتطلع أمير اليمن إلى لبلى ... » فقاطعتها لبلى قائلة :
— « إني لأنزل هن عن أمير اليمن راضية مختارة . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « شدّت أولئك النساء لِقَيْنَة من قيان نصير بن هيم على جمل وقلن لها إذا بلغت خباء نصير وكنت بحيث يسمعك فاصرخي ونادي بالويل والشبور فيخرج إليك فقولي له : ركبت لزيارة أمك مولاتي فلقيني المهمل بن ربيعة واستنزلي من جملي ونال مني وطره وقال لي ليست قيان نصير ولا نساء طي بمحرّمات علينا . ففعلت القينة بما أوصيت به فحقن نصير حقاً شديداً وقال : وحق مناة لأردنّ كيد ربيعة في نهورها ولأغيرنّ عليها وأسين حريمها وأفضحنّها أشدّ الفضيحة بعد سيّدها البراق . » فقال لكيز :

— « لسنا وأيم الحق من جناتها ولكن لنا شرفاً نذود عنه وحرمة نصونها فاذهبوا يا أبنائي وتفرقوا في القبائل واستصرخوا ربيعة وضبيعة وبكراً وتغلب وبني جشم وبني أسد وكلهم مشهور بالشجاعة والنجدة . وأنت نريّا كليب صاحب اللواء في غيبة

البراق أعقده لك فسر به إلى النصر المبين وأنا وأبنائي من حولك نشد أزرك ونحيطك بالسواعد القوية والسيوف القواطع . «
وتفرق المجتمعون وذهبوا يعدون للحرب عدتها .

واستصرخت قبائل ربيعة وبطونها فلم يلب النداء منها غير نفر قليل لانصراف القوم عن لكيز بعد موقفه من البراق ولنزوح البراق عن ربيعة وقد كان فارسها المغوار ومناط رجائها فاضطر كليب هو وأخوته ولكيز وأبنائه وبمن اجتمع لهم من فرسان ضبيعة وبكر وتغلب أن يتلقوا الغارات ويدودوا عن الحياض والذمار .

استعدت الفرسان ليوم الكريهة والطعان واستعدت معهم النساء وفي طليعتهن أم الأغرة وليلى يحملن أداوى الماء وصرر الأواسي من لفائف وجبائر سيحتجن إليها في أسوأ الجراح وشد العظام والحيولة دون نزف الدم .

ولم يطل انتظار فرسان ربيعة ومن معهم فقد حمل عليهم فرسان قضاة وطى وسدوس والتقوا بهم في وادي « متون » واقتتلوا قتالاً شديداً إلى غروب الشمس فتطاردت الحيلول وتحاجزت الفرسان وتعانقت الظبي واشتجرت السيوف وتطايرت السهام وأسفرت المعركة عن قتل عباد أبي الحارث وقتل أخوته التسعة ونخلق كثير من ربيعة . ولقد أبلى كليب وأخوته ولكيز

وأبناءؤه البلاء الحسن غير أن الكفتين لم تكونا متكافئتين
فأب المهاجمون وعلى رأسهم نصير بن هيم الطائي ظافرين
منتصرين يجرّون وراءهم المغنم والأسلاب والسبايا وكانت
ليلي وأمّ الأغرّ في السبايا .

وأمر زعيم طي أن تحاط أخت كليب وابنة لكيز بالرعاية
والتجلة وبأن يضرب لهما خباء خاص فما انقطعت أمّ الأغرّ
طول الليل عن الشكوى والتذمر تندب سوء الطالع الذي جعلها
هي وليلى من سبايا الطائيين وتبدي شديد الأسف على أن
المعركة لم تجري كما يجب أن تجري عليه فلو لم يشغل كليب
وأخوته بقتال بني قضاة لأنقذنا من أيدي الطائيين . ولو شدّ
لكيز وأبناءؤه على نصير وأعوانه لما وقعنا في الأسر . ولو . . .
فقطعتها ليلي قائلة :

— « ليس هناك إلا ” لو “ واحدة يا نخالي . فلو كان
البراق على رأس فرساننا لحنّبنا السّبي ولتغير وجه القتال فهما
يكن من بأس نخالي كليب وشجاعة أعوانه فإنهم كلهم
لا يعدلون البرّاق . » فقالت أمّ الأغرّ :

— « وماذا يفعل فارس واحد ولو كان البرّاق في هذه
الجموع المحتشدة التي تفوقنا عدداً . أحسبت البرّاق يعدل جيشاً
برمته . » فقالت ليلي :

« أمّ الأغرّ دعي ملامك واسمعي
 برّاق سيّدنا وفارس خيلنا
 وعماد هذا الحيّ في مكروهه
 ومثّل يرجوه كلّ مثّل »
 فقالت أمّ الأغرّ :

— « أجل يا حبيبتى ولكن لا تنكري شجاعة خالك كليب . »

فقالت ليلي :

— « معاذ العلى والمجد . ولكن أصيخني إلىّ أحدّئك عن
 البرّاق : إنه ليضرب بسيفه الثور الهائج فيقدّه شطرين .
 وإنه ليسدّ السهم إلى إحدى عيني الغزال فيبيته فيها فهو أمهر
 رماة الحدّاق . وإنه ليعلق الضبّ في غصن شجرة ويرمي فقراته
 بالنبال فيصيبها فقرة فقرة . وإنه ليكرّ على الكوكبة من الفرسان
 الأشدّاء فيطيح برؤوسهم واحداً واحداً . . . » فضحكت
 أمّ الأغرّ وقالت :

— « وإنه ليلتقي بالبحيش اللّهام فينفخ فيه فيطير . . .
 ويحي ما أغباني . لقد نسيت أن ليلي هي المتحدّثة عن البرّاق . . .
 يا لامحب وسلطانة . . . »

فابتهجت ليلي من كلام نخالتها ثم غابهما الإعياء والنعاس
 على أمرهما فنامتا .

لم يكن رأي ليلي في البرّاق مقصوراً عليها فقد كان

كذلك رأي كليب فيه فإنه لما رجع إلى نفسه وتبين وقع الهزيمة التي مني بها بنو ربيعة حنّ إلى البرّاق وعرف أنه ما من بطل سواه حقيق أن يستردّ شرف القبيلة ويمحو عنها الذلة والعار . فأفصى برأيه إلى بعض خالصائه فأمنّوا عليه فركب فيهم وطاروا بأفراسهم طيران الصقور إلى البحرين حتى نزلوا على بني حنيفة فاستقبلهم البرّاق ورحّب بهم وأكرم وفادتهم . وهال كليباً أن يرى البرّاق على غير ما عهدده فيه من زهو وإشراق ومرح ونضارة فعلم أن حبّ ليلي لا يزال يعصف بقلبه ويورده موارد الألم والعذاب .

وقصّ كليب على البرّاق جليّة المعركة وما اكتشفها من حوادث وما نتجت عنه من هزيمة منكرة لبني ربيعة وأنهى إليه أنهم إنما جاءوا مستنجدين به وأنشده :

«إليك أتينا مستجيرين للنصر
فشمروا بادر للقتال أبا نصر
وما الناس إلا تابعون لواحد
إذا كان فيه آلة المجد والفخر
فناد تجبك الصيد من آل وائل
وليس لكم يا آل وائل من عذر»
فتبسّم البرّاق ابتسامة حزينة وذكر ما لقي من لكيز عمّه
من صفة لا يزال يترنح من هولها فأنشد كليباً متهاكماً :

«وهل أنا إلا واحد من ربيعة
أعزّ إذا عزّوا وفخرهم فخري
سأمنحك مني الذي تعرفونه
أشمر عن ساق وأعلو على مهري

وأدعو بني عمي جميعاً وأخوتي إلى موطن الهي جاء أو مرتع الكرّ
 وردّهم يتعثرون بأذيال الخيبة . وكان كليب قد آثر في
 بدء الحديث أن يكتم عنه نبأ سبي ليلي حتى لا يزيد في آلامه
 وقال في نفسه سيعرف الخبر إذا وصل إلى الديار فيلتهب حمية
 وحماسة وكاد وهو منصرف يقذفه بالنبأ الأليم ولكنه أمسك فقد
 كان يرجو أن يهب البراق إلى نصره قومه مستبسلاً فدى القبيلة
 لا بسبيل امرأة وإن كانت ليلي فتوى النبأ في صدره وعاد إلى
 قومه في الجزيرة كثيباً حزيناً .

وانتشر نبأ سفارة كليب إلى البراق في أنحاء الجزيرة وعودته
 خائباً فشاء بنو طي أن ينتهزوها فرصة يوغرون فيها صدر البراق
 ويكسبونه إلى صفوفهم فأرسلوا إليه يعدونه بالكرامة والسيادة
 فيهم إن آزرهم على قتال ربيعة . وزاد خاله نصير بن هيم فذكّره
 بما أصاب من هوان على يد لكيز ومنّاه بتزويجه ابنته إن شدّ
 الرحال إليه وانضمّ إلى طي وامتنع عن نصره ربيعة . وكان فيما
 أرسله إليه قوله :

« ألا أبلغ البراق مني نصيحة	فإنّا إليكم أجمعين نسيرُ
فهل لك تأتينا سريعاً مسلماً	فإني لكم ذو نصره وظهير
قبائل طي كلها قد تجمعت	وأحلافها جاءت هن تغير
ألم تذكروا ماذا جناه لكيزكم	وأعرض عنكم والكلام كثير

هلمّ إلينا كي أزوّجك ابنتي لها شرف في طيّها وظهير
ودع عنك إهمالاً هناك فإنه أقاطيع أرحام وأنت نصير»
فلما بلغت الأبيات إلى البراق ردّها على مسمع أبيه
وسأله قائلاً :

— «أجب عن هذه الأبيات يا أبي .» فقال أبوه :
— «إنما هي موجهة إليك فعليك الجواب .» فأنشأ البراق
يقول مجيباً لحاله :

«لعمري لست أترك آل قومي وأرحل عن فنائي أو أسيرُ
ولي بهم إذا ما كنت فيهم على رغم العدى شرف خطير
أأنزل بينهم إن كان يسرُ وأرحل إن ألمّ بهم عسير
ألم تسمع أسنتهم لها في تراقبكم وأضلعكم صرير
فكفّ الكفّ عن قومي وذّرهم فسوف يرى فعالهم الضرير»

فأبرقت أسارير أبيه الشيخ لما سمعه ينشد هذه الأبيات
متوعداً فيها آل طي وقد كان يخشى أن ينضمّ إليهم انتقاماً
لنفسه من لكيز فهض إليه وقبل رأسه وأمر بمهرته «السبوق»
فوهبها للبراق وكانت من أفره الخيول وأسبقها فأبوها «حافل»
من خيل قضاة وأمّها «عبرضة» من خيل بني شيبان فصاح
البراق في رهطه من بني أسد وبني حنيفة فتوافدوا عليه وأرسل

أباه وإخوته إلى أحياء ربيعة يستصرخون قبائلها فجزعت ربيعة
لخزع البراق وأخذت أهبثها للحرب وكان البراق قد علم بسبي
ليلي فمضى إلى الجزيرة وهو ينشد:

« لأفرجنّ اليوم كل الغمم من سبيهم في الليل بيض الحرم
صبراً إلى ما ينظرون مقسدي إني أنا البراق فوق الأدهم
لأرجعنّ اليوم ذات المبسم الواضح المنضد المنظم

بنت لكيز الوائلي الأرقم

ونحاض البراق وقومه غمرات القتال وأمر كلاً من أخوته
وكلاً من كليب وإخوته على كتيبة وكانت أول موقعة له
مع أعدائه في « دومة » على حدود بلاد أنمار فانتصر فيها انتصاراً
عظيماً وما زال ينتقل من نصر إلى نصر ويلحق بأعدائه
الهزيمة تلو الهزيمة حتى استسلموا وامتلاّت أيديه من الغنائم
ففكّ الأسرى واسترجع الطعائن وكانت فيهن ليلي وأمّ الأغر .
ودحر الطائيين حتى جبلي « أجبأ » و « سلمى » وتقهقر
بنو قضاعة حتى مشارق جبل « رضوى » .

ثم أصلح ذات البين في القبائل فتصافت وتآخت وأقرت
له بالمكانة الأثيرة والشرف الأثيل وسودته عليها زعيم الزعماء
وفارس الفرسان . . .

٧

ورد في هذه الأثناء على لكيز رسول من عمرو بن ذي صهبان أمير اليمن يستنجزه وعده في تجهيز ابنته ليلي إليه فانقطع الخيط الرفيع من الأمل الذي كانت ليلي تشبثت به بعد تلك الحوادث الجسام . على أن ذلك الأمل والحق يقال كانت ليلي قد قطعته هي نفسها قبل أن يفد على أبيها الرسول فلعلها في قرارة نفسها قد ارتاحت إلى قيام أمير اليمن باستعجال أبيها واستنجاهه الوعد بل لعلها سرت بذلك الصنيع ورأت فيه ما يحفظ لها العزة والكرامة ويرضي أنوثتها ويبقيها في العذارى اللواتي تطمح إليهن قلوب الرجال .

انتصر البراق انتصاره الباهر وعقدت له الرياسة في قومه وحُفَّ بالفخر والمجد والشرف ورأى رؤساء العشائر أنه قد أصبح كفؤاً لأمر اليمن فلا غضاضة على لكيز في منحه يد ليلي ولا سيما أن أمير اليمن قد انصرف عنها لا محالة فسكوته أشهراً طوالة دليل على ذلك .

استعرضت ليلي في ذهنها هذه الحال وهي جالسة وحدها في الخباء تفكر وتنعم الروية فذكرت وفود رؤساء العشائر على

أبيها بالأمس وإلحاحهم عليه في تزويجها بالبراق وانتفضت من رأسها إلى أخمص قدميها لما ذكرت أن السبب الأول الذي قدّموه بين يديه هو سكوت أمير اليمن بحيث يحملهم على الظن بل على اليقين أنه عدل عنها وولى وجهه شطر غيرها من العذارى. ويح هؤلاء الأغرار. أحسبوها من سقط المتاع أم حسبوها لاحس ولا رأي لها ولا عزة ولا شمم. يخطبها إلى أبيها الخاطب من الرجال فيجابه إلى طلبه ويقصى عنها ابن عمها حبيبها وخطيبها الأول فيهجر الديار يأساً وغماً. ثم تترع بالخطاب الحديد النوازع فينصرف عنها فينادى على خطيبها الأول ويقال له هذه عروسك عد إليها وخذها إليك فقد أعرض عنها خطيبها الحديد الذي كنا قد آثرناه عليك وارتمينا عند قدميه وبهرنا بمجده وكنوزه. أمّا لو أن البراق رضي بها عروساً بعد ذلك لعفّت عنه وطرحت بحبه في الأودية السحيقة ولبدا في عينيها حقيراً على مجده ذليلاً على عزّه وشرفه. ولكنها ترباً بالبراق أن يهوي إلى هذا الدرك فهي تعرفه أبيتاً متصوّناً مترفعاً ولا أدلّ على كرم خلقه من أنه بهجر الديار عزيزاً كريماً وعاد إليها متحاملاً على نفسه ليدفع عنها المذلة والعار وليقنوها بحمد سيفه وشجاعة قلبه العزة والفخار. فرؤساء العشائر قالوا لأبيها بالأمس إنهم متطوّعون بهذه السفارة على غير علم من البراق وإنما أرادوا

أولاً أن يظفروا من أبيها بالرضى ليتحولوا بسفارتهم إلى البراق .
وهي . أليس لها رأي يسمع . أما كفاها أنها صبانت
كرامة أبيها مرة . أتظل في كل مرة غصن آس ينقل من إناء
إلى إناء . من أوهم هؤلاء السفراء أن ليلى جبة من الحرير يلبسها
كل لابس . من أدخل في روعهم أنني أقبل البراق عروساً لأن
أمير اليمن طوى كشحه عني فأعرض وانصرف . لقد ألهمت
السماء والدي وإن كان لا يعرفها إلا بالأوثان والأصنام
أن لا يقطع للسفراء بوعده جازم حتى يتملى من الأمر ويتدبره
وها هي ذي رسالة أمير اليمن تحسم الأمر وتقطع الأقاويل .
ساورت ليلى مثل هذه الهواجس وهي تنتظر أباه وأخوتها
وانتهت إلى أن رسالة أمير اليمن هي وحي من الله قد جاء يصبون
عليها عزتها ويحفظ لها كرامتها فلا بد من الاستعداد للرحيل
 وإعداد النفس لقبول الحياة الجديدة التي ستحيها ولها من
حب البراق في ضلوعها ينبوع تنهل منه وترتوي في صحراء
الحياة .

ورمت ليلى عرضاً بنظرها إلى باب الحباء فرأت أباه
وأخوتها قادمين وكانوا قد تلاقوا عند ساحة الحباء فأخوتها
عائدون من المرعى وأبوها راجع من لدن البراق فحيّاها وقال :
— « ذهبتي يا ليلى إلى ابن أخي البراق لأطلعه أولاً »

على ما دار بيني وبين رؤساء العشائر فعلمت منه أنهم كانوا متطوعين في السفارة كما قالوا . . . »

فخفق صدر ليلى لما أيقنت أن البراق على ما عهدته فيه من العزة وسمو النفس ثم استمعت لأبيها يتم حديثه ويقول :

— « ولأني إليه ثانياً بالرسالة التي حملها إليّ رسول أمير اليمن يستنجزني فيها وعدي بالرحيل بك إليه . » فسأله ليلى :

— « وكيف تلقى هذا الخبر . » فقال لكيز :

— « كان على علم به فأطرق قليلاً ثم دعا لك بالحناءة والسعادة . ولما أعربت له عن أمنيّتي بأن نحتفل قريباً بزواجه من عروس تحبه ويحبها وتوفر له أسباب النعيم قال لي : لقد عزمتم على أن أحيا عزباً ما حيث تشغلني البيض والسمر من السيوف والرماح عن البيض والسمر من مهى الإنس والغزلان . . . »

فغام وجه ليلى عند سماعها هذا الكلام ولم تدر أتبهج ببقاء حبيبها على عهدهما أم ترثي له وتبتس ومضى أبوها يقول :

— « ولأروي له ثالثاً كيف أغلظ رؤساء العشائر لي القول عندما أبلغتهم رسالة أمير اليمن وعزمي على تحقيقها وإنفاذك إليه . » فقال ابنه الأكبر :

— « أوغاب عنهم أن وراءك ثلاثة سيوف كفيلة بأن تغسل الإهانة بالدم المراق . » فقال لكيز :

— « لا يا بنيّ فما وصل غلظ كلامهم إلى حد الإهانة وإني لأتجاوز عن عنفهم وتقريعهم لما أعرفه فيهم من شرف القصد وحبّ للبرّاق ولكنهم غفلوا عن أن مصاهرة أمير اليمن ستدرّ أخلاف الخير على القبيلة مهما بلغت من عزة وجاه في سلطان البرّاق وجاه . وكيفما كان الأمر فقد استاء البرّاق من تهوّرهم وحلف ليصبحنّي وليلى إلى تخوم الديار يوم رحيلنا وليشملنكم برعايته وحمايته في أثناء غيابي . » فقالت ليلي :

— « وهل قبلت يا أبي أن يصبحبنا إلى التخوم . » فقال لكيز :

— « ولمَ لا أقبل يا بنيّتي أوليس البرّاق ابن أخي وابن عمك وسيد العشيرة وحامي ذمارها . فصحبته إيانا تقطع ألسنة السوء فلا تفترى علينا ولا تتقول الأكاذيب ، »

والحق أن ليلي قد سرّها قرار البرّاق بمرافقة ركبها إلى حدود الديار في ذلك المظهر من النجدة والتجلة كبت لحواسدها وإعلاء لشأنها وعنوان على أنها لا تزال العروس المنشودة يودّعها حبيب ليستقبلها خطيب . وفوق هذا كله ستمكن من وداع البرّاق ومن التزوّد منه بالنظرة الأخيرة قبيل الفراق الذي لا لقاء بعده

وفي اليوم المضروب للرحيل ركب الكيز جواده الأصهب وأحاط به أبنائه الثلاثة لابسين الخنز والديباج من أبراد اليمين ومنتظمين بأحزمة الحرير شكت فيها الخناجر المرصعة بالذهب والجوهر مما كان قد أهداه إليهم أمير اليمين . وضربَ ليلي هودج جميل على ناقة ورجاء استوت فيه مرتدية غالي الثياب متحلية بعقد الدر وبالدملج المرصع باليواقيت وعقدت على رأسها منديلاً من الدمقس رمته إلى قذالها وأدارته على وجهها من الشمال إلى اليمين فكان لها لثاماً سترَ محيّاها وتراجع عن عينيها الدّعجاوين البرّاقتين . وكان في الركب رسول أمير اليمين ممتطياً صهوة جواده وقد أمسك بمقود ناقة ليلي تكريماً لها وتعظيماً . وركب نفر من غلمان الكيز نياقهم ولبسوا أسلحتهم واستعدوا لمرافقة ليلي وأبيها وحراستهما حتى يبلغا أبواب اليمين .

وكان في المودعين أمّ الأغرّ وأخوتها فأوسعت ليلي تقبيلاً . قبل أن تستوي في هودجها . ولما سارت القافلة في طريقها رجعت أمّ الأغرّ إلى بيتها وهي تذرف الدمع وتبع كليب وأخوته الظاعنين وانضم إليهم البرّاق وأهله بعد قليل فكان يخالس ليلي وتخالسه النظر وفي قلب كل منهما نار مستعرة .

وعندما وصلت القافلة إلى منعرج اللوى وهمّت بأن تسلك طريق اليمين توقف الكيز عن السير وحذت حذوه القافلة كلها

فودّع أولاده وانثنى إلى البرّاق وكليب وأهلها فحيّاهم تحية طيبة وشكر لهم عاطفتهم الكريمة فردّوا على التحية بأحسن منها ثم تابعت القافلة سيرها فوقفوا يشيعونها حتى غابت عن الأنظار فأداروا أعناق الخيل وعادوا إلى الديار .

وكانت ليلي كلما خطت بها الناقة خطوة بعد أن استأنفت القافلة مسراها تسترق النظر إلى البرّاق من خلال أستار الهودج وتكاد تسمع دقات قلبها من شدّة الحفقان حتى إذا حالت بينها وبينه الآكام والتلال أطلقت عبراتها المحبوسة وأجهشت بالبكاء

جدّت القافلة في السير تمشي خبيّاً إلى غايتها في النهار وتنزل ضيوفاً في الليل على كرام العرب الذين تمرّ بهم في أثناء السُرّي أو تنصب الخيام في الأرض القفر . وكان رسول الأمير كلما عرّجوا على واد ظليل أو مرج نصير ترجل وقطف بعض ما يلتقى فيه من الشيخ والقيصوم أو من الحرار والأقحوان وقدّمه إلى ليلي تنعم منه بطيب الشذا وتزين به بجوانب الهودج فتقبله منه باسمه شاكرة .

واستمرّت القافلة تغدّ السير حتى جاوزت « الصّمان » ووصلت في طريقها إلى « وادي السباع » فأشار الكيز على رسول الأمير وغلماناه بالوقوف قليلاً في ذلك الوادي يأخذون

لأنفسهم فيه قسطاً من الراحة ويكحلون النواظر بحسنه وجماله فوقفوا الخيل وأناخوا الإبل وترجل لكير والرسول وقفزت ليلي إلى الأرض عندما بركت ناقةها فأخذت تسير الهوينى في شعاب الوادي وتملاً رثتها من شميم الزهر ونسيم الفضاء الواسع قبل أن تنطبق عليها أبواب القصور وتصبح سجيناً عيش لم تألفه وأمة رجل لا تستطيع أن تهبه قلبها .

وانتهى لكير ورسول الأمير ناحية وأخذوا يتجاذبان أطراف الحديث في مختلف الشؤون ثم انحدرا من أعلى الطريق إلى عدوة الوادي ينهلان من الماء المنبجس من كبد الصخور وينتعشان بالرشاش المتطاير منه .

ولشد ما راعهما صوت ليلي ينبعث من وراء الصخور في جانب آخر من الوادي وهي تصرخ وتستغيث فخف الرجال إلى نجلتها متجهين إلى مصدر الصوت مشفقين من أن تكون ليلي قد عضتها بعض الأفاعي أو هاجمها بعض الوحوش . وهرع كذلك على صوت الاستغاثة غلمان لكير وكانوا خمسة من الرجال الأشداء فسارعوا إلى نجدة سيدهم وابنة سيدهم ولحقوا بأبيها ورسول الأمير وظلوا جميعاً يهبطون ويصعدون في بطن الوادي وريود هضابه حتى لاحت لهم ليلي عن بعد وكانت قد خرجت من مسالك الوادي وبلغت الطريق .

كان الوادي قائماً إلى شمال الطريق الضاربة في مناكبها
قافلة لكيز وكان إلى يمين الطريق سلسلة من التلال المكسوة
بالشجر فلما وصل لكيز إلى ابنته ووراءه اليميني والغلمان وسألها
عن سبب صراخها قالت وهي تضطرب وتلهث :

— « كنت أجدول في شعاب الوادي ثم تركتها صُعُداً إلى
هذا التلّ فما إن كدت أقرب من هذه الشجرة الضخمة التي
عرجتم عليها حتى وثب من ورائها رجلان مدجّجان بالسلاح
فأذهلتني المباغتة وصرخت مستغيثة غير أن الرجلين لم يمستا
بسوء بل رأيتهما يطلقان سيقانهم للريح ويجتازان عرض الطريق
ويغيبان وراء هذه التلال والهضاب التي ترونها إلى يمين الطريق
فلعلهما حارسان من الحراس أو لعلهما بعض الأرصاد أوعز
إليهما أن يكمنوا وراء هذه الشجرة ليرقبا الطريق ويتربّوا مروونا
أو مرور غيرنا بها ويبلغا رفاقهم فيقبلوا للسلب والنهب .

وشخصت أبصار أفراد القافلة إلى التلال التي أشارت
إليها ليلي فهالهم أن يروا نحو خمسين فارساً قد برزوا من وراء
القمم وانحدروا بخيولهم إلى الطريق وهم مشرعو الرماح شاهرو
السيوف فسدّوا الطريق ووقفوا فيها صفوفاً مترابطة .

عجب أصحابنا من هذه المفاجأة وحاروا في تلمّس أسبابها
وزادت حيرتهم لما رأوا فريقاً من هؤلاء الفرسان يرتدي الملابس

العربية في حين يرتدي الفريق الآخر بالملابس الفارسية فهم
لا شك من جند فارس .

ولم تطل حيرتهم فقد تقدم زعيم الفرسان من لكيز وقال :

— «حييت يا سيد ربيعة .» فقال لكيز :

— «حييت أيها الفارس .» فقال الفارس !

— «ألم تعرفني يا لكيز .» فقال لكيز :

— «ومن لي أن أعرف فارساً ملثماً مقنعاً .»

فتزع الفارس لثامه فما إن وقعت أنظار لكيز وابنته عليه

حتى صاحبا معاً مدهوشين مضطربين :

— «برد بن طريح . . .» فقال برد :

— «نعم برد بن طريح . . . الذي جاءك خاطباً إليك

ليلي فرددته خائباً يجرر أذيال الخيبة والهوان . . .» فقال لكيز :

— «ما رددناك يا برد هواناً بك واحتقاراً لشأنك وإنما كانت

هناك دواع حالت دون إجابتك إلى سؤالك .» فقال برد :

— «إن أمير اليمن لم يكن قد سمع بليلي . . . وإنما آثرت

عليّ البراق الفتى الصعلوك . . .» فانهزته ليلي قائلة :

— «إنه أشرف منك ومن أبيك . . . إنه من ربيعة لا من

إياد التي ذلت للأعاجم فضربوا عليها الذل والمسكنة .» فقال

برد :

— « وها أنت ذا يا لكيز تخلف وعدك للبراق وتسوق ابنتك
أمة ذليلة إلى أمير اليمن . » فقال رسول الأمير :

— « على رسلك يا سيدي . إن ليلى وبنت لكيز هي عروس
عمرو بن ذي صهبان أمير اليمن لا أمتهُ وستزفُ إليه ويعقد له
عليها في اليوم الذي تصل فيه إلى صنعاء فحذار يا سيدي أن
تعرض بالأمير وإلا سؤت مغبةً وعقبى . » فقال برد متهمكاً
ضاحكاً :

— « لا شأن لي والأمير واعلم أنني لم أغادر أرض فارس
ولا اجتزت خليج العجم ولا يمت بجنودي شطر هذا الوادي
وادي السباع لأتناوب الحديث معك عن أمير اليمن ولكن لأرقب
مجيء السيد لكيز وابنته ليلى فقد علمت من أعواني وعيوني
بيوم رحيله فسبقته إلى هذا المكان لأناقشه الحساب وأفوت
عليه ما سعى من أجله . . . » فقالت ليلى مغضبة :

— « ومن أنت حتى تناقش سيد العرب الحساب أيها الغادر
الخؤون . . . » فقال برد :

— « أنا يا سيدتي من سيحول بينك وبين السفر إلى اليمن
ومن سيحملك سيئةً لأمر فارس ينعم بقربك ويجعلك في
حظياته وسراريته . » فبادره لكيز ساخطاً وقال :

— « خست أيها النذل فدون مرامك سيوف قبائل ربيعة

كلها . » فقال برد وهو يقهقه ضاحكاً :

— « وأين أنت من قبائل ربيعة يا أبا ليلى . ألا تنظر إلى من معي من الفرسان وكل واحد منهم بقبيلة برأسها . . . حتى سيفك قد تركته مغمداً في قرابه ومعلقاً في سرج جوادك . فعدّ عن المقاومة إذا كنت فكّرت في المقاومة أو خطرت لك ببال فسأصحب ابنتك ليلى إلى أمير فارس بلاش بن الملك فيروز بن يزدجرد ولو حماها ألف سيف من سيوف العرب . » فصاحت فيه ليلى :

— « أبلغت بك الحسنة والندالة أن تصبح خطاف النساء . . . »

فقال برد :

— « رفض أبوك ورفضت أن تكوني لي الحليّة المكرّمة . فكوني إذن لمولاي أمير فارس الحليّة المواتية . . . وإن شئت فادفعني إلى أبيك ما تتحلّين به من جواهر فلدي أمير فارس ما يغنيك عنها . . . » فقالت ليلى شامخة بأنفها :

— « وما حظك أنت من التلوّث بهذا الإثم . . . » فقال

برد :

— « حظي أن أنتقم لنفسي منك ومن أبيك وأكون أثار من قصير فأراك ممرّغة في التراب ذليلة بعد عزّة متبدلة بعد عفة تصيّمين أهلك وعشيرتك بوصمة العار بعد أن كنت لهم

ميسم زهو وفخار . . . ولكن كفانا ثثرة فهيّا اصحبيني . . . »
 وحاول لكيز أن يهجم على برد ويمزقه تمزيقاً وحاول محاولته
 الرسول النبي والغلمان الخمسة فقد كانوا متقلدين أسلحتهم غير
 أن ليلى قدرت أن لا فائدة من المقاومة فأنتى لسبعة رجال أن
 يظفروا بخمسين فارساً غارقين في الدروع والسلاح فحققت
 الدماء وحالت بين أبيها وغريمه وقالت :

— « حسّانك يا أبت لا تلطّخ يديك بدم رجل تنبض
 عروقه بالغدر والإثم والحيانة لئن كنت أنت أجراً من قسورة
 إنه أجبن من نعامة فلن ينازلك وحده ولكن بهذه الرماح والسيوف
 المشرعة حوله . . . فاتركني لمصيري البائس وادّع بأن يرحمني
 الله الذي أعبدته . . . »

ونزعت من جيدها العقد ومن معصمها الدمليج وسلمتهما
 إلى رسول أمير اليمن قائلة :

— « خذ هدية مولاك وأرجعها إليه مشفوعة بشكري وتحيتي
 وقل له إن عروسه كانت فريسة لص من لصوص النساء . »
 وارتمت على أبيها تقبله وتودّعه ثم التفتت إلى برد بن طريح
 وقالت :

— « ها أنا ذا أسيرتك أيها الرجل فسرّ بي إلى حيث

تريد . »

فأشار برد إلى بعض رجاله فجاءوه بجواد مسرج أثمن
إسراج فقال يخاطب ليلى :

— « عرفتكَ يا أميرة البادية فارسة تجيدين ركوب الخيل
فامتطي هذا الجواد الأدهم واصحبينا. وإياك والحرب فإنه جهد في
غير طائل . »

فاعتلت ليلى متن الجواد وأحاط بها الفرسان من كل جانب
وسارت تلك الكوكبة تنهب الأرض انتهاباً في طريقها إلى فارس
يتقدمها برد بن طريح الإيادي . . .

ومشي لكيز وغلماناه إلى مطاياهم فركبوها وأقبل لكيز على
رسول أمير اليمن يودّعه ويحمله إلى الأمير السلام والتجلة ولم يزد.
وعاد بغلماناه إلى دياره بالجزيرة وكان بين حين وحين في أثناء
العودة يتطلع إلى الهودج الخالي ويتفقد ابنته فيه فلا يراها فتدمع
عينه من فيض الأسى وتذهب نفسه حسرات . . .

٨

استأذن برد بن طريح في الدخول على بلاش ابن ملك فارس وكان هو المستوي على العرش مدة غياب أبيه في ساحة القتال فأذن له فدخل وحيًا وقبل الأرض بين يدي ابن الملك وقال :

— « لقد جئتك يا مولاي بأميرة البادية وإنها لتحفة العرب أجمعين . » فقال بلاش :

— « أهي التي حدثتني عنها وقلت إن عمرو بن ذي صهبان خطبها إلى أبيها . » فقال برد :

— « أجل يا مولاي وإنك لأجدر بهذه التحفة النفيسة من أي أمير آخر فسوف تكون درة متألقة بين جواريك وحظياتك . » فقال بلاش :

— « بورك فيك يا برد فوفق النار والكواكب إنك للعبد الذكي الأمين . ولكن قل لي كيف رضيت أن تستبدلنا بأمير اليمين . . . » فقال برد :

— « خطفتها يا مولاي وهي في طريقها إليه واعلم يا مولاي أنها زين عذارى ربعة على الإطلاق . . . » فقال بلاش :

— « طالما حدثتني عنها وأسهببت في وصف جمالها
وكمالها ووعدتني أن تغريها بالمحبيء إلينا وتنتظم في سلك جوارينا .
أمّا أن تخطفها وتقودها إليّ قسراً فلا . . . إني أشتهي نظر
هذه الحسناء ولكن لا أكرهها على ما لا تريد . . . »

وأحسنّ برد أن الفريسة ستفلت من يديه وأن صرح الثأر
الذي بناه سينهار انهياراً فبلع لعبابه وقال :

— « إنها راضية كل الرضى بأن تكون أمتك وجاريتك
تنيلك من نفسها ما تشتهي ولقد أنزلتها داري وأمرت بإصلاح
شأنها وجلوها أحسن جأوة فإن شئت يا مولاي كانت في
قصرك هذا المساء وسترى أن لخادمك برد نظرة صائبة . »

فتبسّم الأمير بلاش وأجزل صلة برد ثم أشار إليه
بالانصراف فانصرف .

وكان الأمير محبباً للهو والقصف غير أنه كان طيب السريرة
كريم الخلال ما حدثته نفسه قط أن يقطف ثمرات الأنس
عنوةً واقتداراً. ولعلّ فتوره عن الاحتفال بهديّة برد على ما كان
برد يحبّ ويرجو بعد شديد عنائه أنه كان مشغول الفكر قلق
البال على أبيه الملك وعلى عمّه هرمزد وأخيه قباد فقد ذهبوا جميعاً
على رأس الجيوش الفارسية لقتال الهياطلة بعد إذ جاءتهم الأنباء
أن الهياطلة خرجوا من باب سمرقند وأمير اللواء فيهم ابن خاقانهم

وتوغلوا في بلاد فارس يعيشون فيها فساداً وينشرون الخوف والذعر والدمار .

وكان بلاش كلما بلغت الهزائم التي تحقيق مجيوش فارس اضطرب وخشي قيام الفتنة في المملكة فقد بوأه أبوه سرير السلطنة مدة غيابه ولكنه أعجز من أن يقمع فتنة أو يخمد شوكة ثورة. وكثيراً ما رجع إلى نفسه المسألة الواعدة وقال : ساحتك الكواكب يا أبي . لماذا نقضت العهد الذي أبرمه جدك بهرام جور بينه وبين خاقان الهياطلة . ولماذا اخترقت الحدود التي جعلوها فاصلة بين المملكتين . فمن يدري ماذا تكون عاقبة هذه الحرب أو لعلي أدري فبوادرها معلنة عن خواتيمها . فلم يكن بلاش إذن على حال تسمح له بالاغتياب بصيد جديد من غزلان الأنس فإن يكن قد استمع لبرد يروي له كيف اصطاد الطريدة ويغريه بالإطباق عليها فقد كان يستمع له بأذنيه لا بقلبه .

وانقلت برد من لدن الأمير والدنيا ضيقة في عينيه على رجبها وما برح على طول الطريق من قصر الملك إلى داره يعمل الفكرَ ويقرع باب الحيل لعله يجد مخرجاً من هذا المأزق الذي تردى فيه . فقد زعم للأمير أن ليلي جاءت إليه طائفة مختارة ووعدته بأن تكون في ذلك المساء بين إمائه وجواريه في القصر

على حين أنها ناشزة نشوز الفرس الجموح لم تتورّع عن أن تسمعه قوارص الكلم وتنعته بأحطّ النعوت عندما تركها في داره وأمر زوجته بأن تعدّها ليحملها بعد قليل إلى الأمير . . .

كان يعرف ما جبلت عليه نساء العرب من إباء وشمم فإذا لم يرضين بأمر من الأمور طواعيةً فلا سبيل إلى حملهن عليه كراهية. وكان يعرف أن ليلي فوق نساء العرب جميعهن عزّة وإباءً ولكنه كان يعلل النفس أن يكسر سلطان الأمير شوكتها وأن تدفعه الرغبة فيها إلى أن يفرض عليها الطاعة والامتثال. فها هو ذا الأمير لا يقسو ولا يتشدّد كأنه لا مطمع له فيها ويترك لها الخيار في السعي إليه أو الإعراض عنه. فإذا يفعل في الوعد الذي قطعه للأمير وتكفّل فيه أن تكون في قصره بعد ساعات قلائل. فهبّتها أبت وتمنعت وسوف تأتي وتمنّع فهاذا يعتذر إلى الأمير وبأي وسيلة إذن يشفي غليله الظمآن للثأر ويحقق أمنيته بأن يجعلها سبيّة ذليلة بعد أن استعصت عليه حليلة شريفة . . .

استعرض في ذهنه مختلف الوسائل وهو سائر إلى منزله فقراً قراره على أن يأخذها بالشدة متوعداً مهدداً إذا كانت لا تزال على عصيانها وتمردّها. فما إن يدخل داره حتى يهرع إلى زوجته ويسألها :

— « أزيّنتها وألبستها فاخر البرود الفارسية بدل برودها اليمانية

لأحملها جميلة متبرجة إلى ابن الملك . » فقالت زوجته :

— « هيهات . أين منك هذا الحديث . فما إخالك تستطيع

أن تذهب بها إلى ابن الملك إلا إذا قتلها وحملتها إليه جثة هامة .

فلقد منعنا نظرها لاتحدثنا ولا تصغي إلينا . وقد منا إليها . شهى

الطعام فما مدت إليه يداً . وهي هائجة نائرة كاللبوة فقدت

أشباهها . ولا أكتمك أن الشفقة أخذتني عليها فرثيت

لحالها . . . » فقاطعها زوجها برد قائلاً :

— « لكأني بعرقك العربي قد أثار فيك الرأفة بها والحنان

عليها فلا تنسي أنك من إياد . وهي من ربيعة وأنا نحمل في

دمائنا جرثومة الشقاق بين ذينك الأخوين . . . » فقالت :

— « وحق كعبتنا بسنداد والنار التي أعبدتها وإياك منذ أن

أصبحت زوجة لك ليس العرق العربي هو الذي أثار في الرأفة

بها والشفقة وإنما هو عرق تعاطف الإنسان على الإنسان وحذب

المرأة على المرأة . . . » فقاطعها وقال :

— « كفى هذياناً فأنت زوجتي منذ نحو عام وما رأيتك

قط في مثل هذا الغباء . أترك خالذك الندم على اللحاق برجل

يخدم بيت فارس ويوفر لك كل أسباب النعيم . » فقالت :

— « كلاً وأيم الحق وسترى أنت نفسك أن هذه الفتاة

جديرة بالثناء . »

فترك زوجته واقتحم على ليلي باب مخدعها وصاح فيها
مزججراً :

— « هيا انهضي وتجملي فالأمير في انتظارك . »

فنظرت إليه نظرة ملؤها الاحتقار والازدراء ولم تجب فقامت
قائمه وأردف قائلاً وهو يرغي ويزبد غضباً وسخطاً :

— « لئن لم تمتلي لأمرى لأعدّ بك عذاباً شديداً ما خطر
لك على بال . » فقالت :

— « إن يد ابن عمي البراق كفيلة بأن ترد كيدك في نحر
والويل لك يوم يلقاك فإنه سوف يمثل بك تمثيلاً ويمزق بسيفه
وجهك الذي لا حياء فيه وقلبك الذي تفضله قلوب الوحوش . »
فضحك برد بن طريح ليخفي الجزع الذي استولى عليه
من ذكر البراق ولكنه اطمأنّ بالآفة فيه وبين البراق سهول
وجبال وبوادي وقفار ثم شغلته فكرة إرضاء ابن الملك والوفاء بالوعد
فعمد إلى الملاينة والملاطفة وإن تكن نار الحقد على ليلي تستعر
في قلبه استعاراً فقال :

— « إنك نائرة عليّ اليوم ولكنك في غد ستغمريني بآيات
الحمد والشكران لما ستلقينه في بلاط فارس من مجد ونعمة
وستقولين أنقذني برد بن طريح من حظائر الشدّاب وبجاد الوبر

وحشايَا الشَّعَر ونقلني إلى بيوت الرخام والذهب وغالي الرياش
 وفاخر الآنية . إنك ستلبسين الخرزَ وتتحلين بالجوهر وتأكلين
 بصحاف الفضة والذهب . . »

فرمته ليلي بنظرة ثانية من نظرات الاحتقار والزراية فتجاهل
 معناها وقال :

— « قد تقولين إنك كنت ذاهبة إلى اليمن تلقين فيها
 بعض هذا ولكن أين الثريا من الثرى وأين فارس من اليمن وأين
 حمير من ساسان فما خرج اليمنيون على غناهم عن نطاق العرب
 الأجلاف أكلة الضببة ورواد البوادي . »

فلما أكثر عليها غلى في عروقها الدم العربي وتلظت في
 جوانحها الحمية العربية فهضت واقفة وقد تطاير الشرر من
 عينيها واعتمل الشعر في صدرها وأنشأت تقول :

« لو كنت منتسباً إلى شيبان لحفظتُ فرعهم بكل لسان
 وعرضت عن فعل الحناء أخا الخنا وغضضت طرفاً مستحي الأجفان
 وأنا النسبية والعفيفة فاعلمن يا ابن الدنية يا ابن كل أتان »

فكلح وجه برد من الغضب عند سماعه هذه الأبيات
 وانقلب إلى وحش ضار وقال :

« ويحك . . . أبرد بن طريح ابن أتان . . . أليس إيراد

وربيعة أخوين . . . » فقالت :

— « كذبت يا ابن الفارسية . . . ما أنت من إياد فلو كنت
منها ما رضيت في ربيعة هذا الفعل ولا سقت ابنة من بناتها إلى
المعصية والفحشاء وإنما أنت زنيم وابن زنيم . . . »
فأطارت كلمات ليلي صواب برد فاستشاط غيظاً واندفع
كالعاصفة إلى خارج الحجرة وهو يهدر هدير البعير وأمر عبيده
وغلماناه فهاجموا على ليلي وقيدوها بالأغلال وضربوها ضرباً
مبرحاً وبرد ينظر إليها غائر العينين فائر الصدر حتى رآها
سقطت لا تعي فاستوقف عبيده وصرفهم واقترب من ليلي
فسمعها تفر وتنهّد فقال لها :

— « سنعاول الكرة إذا بقيت على عنادك وإصرارك ولن
ينقذك من ضربات السياط إلا إذعانك لما طلبته منك ووعدك
إياي بأن تذهبي إلى الأمير راضية متبسمة . وحنّار أن تفضي
إليه بغير ما ألقنك إياه وإلا فأنت هالكة لا محالة . » فقالت
له بصوت ضعيف يكاد لا يبين :

— « اقتلني فلكموتٌ خير من هذا العذاب . . . »

ثم تركها وذهب إلى بعض شأنه على أن يسود عما قريب
ودخلت زوجته على ليلي تواسيها وترطب خاطرها وتعني بها
عناية الأخت بأختها فاستعادت ليلي شيئاً فشيئاً قواها واستوت

جالسة تفكر في مصيرها المشؤوم فقالت لها زوجة برد :
 — « يعزّ عليّ يا أختاه ما نالك من أذى . ويعزّ عليّ أن لا
 لا يسمع زوجي شفاعتي فيك وأن تنزلي بيّتي فتلقني فيه هذا
 الهوان . . . » فقالت ليلي :

— « شكراً لك يا أختاه فما أنت مسئولة عن هذا الهوان . . . »
 فقالت زوجة برد :

— « لقد بلغت في عرضك عذراً يا أختاه فاقبلي نصيحتي
 فليس هذا أوان عفة ولا أنت في أهلك وحياطة عشيرتك حتي
 يدفعوا عنك الأذى ويصونوا ما تُدلين به من عفاف . . . »
 فقالت ليلي :

— « القتل أهون عليّ يا أختاه مما يقسرني عليه . . . »
 ولم تقو على متابعة الكلام فأجهشت بالبكاء وبكت معها
 زوجة برد ثم خشيت أن يفاجئها زوجها وهي تبكي فغادرت
 الغرفة على أن تعود إلى ليلي بعد قليل فذهبت تصلح من شأنها
 وتغسل عينيها لتزيل منهما أي أثر للدموع والبكاء .

واستسلمت ليلي إلى حزن عميق وشقّ عليها أن تواجه
 الأخطار وحيدة لا حول لها ولا طول غريبة عن الأهل
 والديار . . . فلو كانت في ربيعة لحمى عرضها ألف سيف
 ولجنّتها العار ألف مغوار من مغاوير العرب وصناديدهم .

وفي طبيعتهم أخوتها وأخوالها والبراق وأخوته . وشعرت أن
انصراف فكرها إلى أهلها وعشيرتها إهانة للبراق فقد كان عليها
أن تفكر فيه أولاً بل أن تفكر فيه أولاً وآخرها فهو فارس بمقام
ألف وهو حبيب الروح وصنو الفؤاد . ألم تكن في السبايا يوم
أغارت قضاة وطى على أحياء ربعة . أوليس البراق هو الذي
أنقذها من هوان الأسر ورد على القبيلة عزتها وشرفها فأمرته
عليها واعترفت له بالسؤدد والجلال . فكيف لا تقصر اعتمادها عليه .
وأخذت تناجيه وتعتذر إليه عن إشراك إخوتها وإخوته
وأخوالها وفرسان القبيلة طراً في النجدة المرجوة وتهتف في نفسها :
سامحي يا براق فما كان لي أن أستنصر سواك ولا كان لي أن
أعتمد إلا على ساعدك القوي وقابك الشجاع . . . ثم تعود إلى
نفسها محدثة وتقول : ولكنهم أهلك وأهلي يا براق فما إخالك
إلا راضياً عن أن يكونوا لك الأجنحة المرفقة وأن تكون لهم
القلب الخفاق . . .

وتثوب إلى رشدها وتمحي أشباح الخيال من خاطرها وتوقظها
من أحلامها الحقيقة المؤلمة فتدرك أن البراق لو استحال إلى
طائر يسبح في أجواز الفضاء لقضى أياما وليالي قبل أن يصل
إليها . ولو انقلب إلى إعصار يلهب بسوطه ظهور الرياح ويقتلع
في سيره الأشجار ويدحرج الجبال لاحتاج إلى ردح من الزمن

قبل أن يتنقل من أحياء ربيعة في الجزيرة إلى دار برد بن
طريح في فارس .

وتذكر هذا الوحش الضاري فترتعد فرائصها فرقاً ويخيل
إليها أنه رجع يكيل لها الضربات فتفرع إلى البراق وفرسان
عشيرتها أجمع وتستغيث بهم وتناجيهم قائلة :

ليت للبراق عيناً فرى	ما أقاسي من بلاء وعنا
يا كليباً يا عقيلاً إخوتي	يا جنيداً أسعدوني بالبكا
عذبت أختكم يا ويلكم	بعذاب النكر صباحاً ومسا
غللوني قيدوني ضربوا	موضع العفة مني بالعصا
يكذب الأعجم ما يقربني	ومعي بعض حشاشات الحيا
قيدوني غللوني وافعلوا	كل ما شتم جميعاً من بلا
فأنا كارهة بغيتكم	ويقين الموت شيء يرتجى
أتلون علينا فارساً	يا بني أنمار يا أهل الحنا
يا إياداً نحسرت صفقتكم	ورى المنظر من برد العمى
يا بني الأعماص إماً تقطعوا	لبي عدنان أسباب الرجا
فاصطباراً وعزاً حسناً	كل نصر بعد ضر يرتجى
أصبحت ليلي تغائل كفها	مثل تغليل الملوك العظما
وتقيد وتكبل جهرة	وتطالب بقييحات النبا
قل لعدنان فديتم شمرؤا	لبي الأعجام تشمير الوحي

واعقدوا الرايات في أقطارها واشهروا البيض وسيروا في الضحى
يا بني تغلب سيروا وانصروا وذروا الغفلة منكم والكرى
واحذروا العار على أعقابكم وعليكم ما بقيتم في الورى

وكانت زوجة برد بن طريح قد عادت إلى ليلي لتهون
عليها خطبها فسمعتها تنشد هذه الأبيات فرق قلبها لها وفعل
فيها الأسى فعلمه وكادت تنشج وتتعب فغابت نفسها وعزمت
أن تبذل ما تستطيع من معونة لهذه الفتاة العفيفة البائسة . فنادت
قيثنة لها عربية من بنات إيراد وروت لها الشعر وأمرتها بأن تخف
إلى جبير بن طريح أخي زوجها برد وتنشده الأبيات وتطلب
إليه باسمها سرا أن يهزع إلى نجدة الفتاة بأية وسيلة من الوسائل .
فانطلقت القيثنة مسرعة إلى أخي سيدها وقصت عليه كل
ما شهدته من ضروب القسوة والغلظة وأنشدته الأبيات وكانت
القيثنة قد مالت هي أيضاً إلى ليلي ورثت لحالها فأضافت إلى
رجاء سيدها إلحاحها على جبير بن طريح بأن يسرع في إنقاذ
هذه الشقية المسكينة قبل أن يعود أخوه برد إلى المنزل فيستأنف
قسوته وغلظته .

سمع جبير هذه القصة الغريبة فنالت من فؤاده كل منال
وأدرك بثاقب نظره أن الفتاة هي ليلي بنت لكيز فقد كان يعرف

أن أخاه خطبها منذ نحو عام إلى أبيها فرجع خائباً وكان كذلك على صلة بكل ما جرى في ربيعة من حوادث إلا خطف ليلى فسمعتة القينة يقول لنفسه: «قُبِّحت يا برد فما هذه أعمال الرجال الشرفاء ثم سمعته يقول لها:

— «عودي إلى مولاتك وقولي لها إني سأركب الصعب في سبيل نجدة الأسيرة العربية ولو غضب أخي وساء ما لآ .»
فانكبَّت القينة على يديه تقبّلتها وتدعو له بالعمر الطويل وتقول له:

— «حييت يا سيدي من رجل نبيل . . . هكذا تكون نخوة الرجال . . . هكذا تكون نخوة العرب . . .»
وعادت أدراجها تخبر سيّدها بتلك البشرى وترجو أن لا يكون سيدها برد قد عاد إلى الدار يذيق ليلى مرّ العذاب .
وأخذ جبير بن طريح بعد انصراف القينة يفكر فيما عساه يفعل حتى ينقذ ليلى من عذاب الجسم والروح فرأى أولاً أن يذهب إلى أخيه برد ويعنّفه على فعله ويقنعه بأن يكفّ عن أذية فتاة بريئة ويحول دون ما قدره لها . ولكنه ذكر ما اتّصف به أخوه من شراسة في الخلق وغلظ في الكبد وميل إلى الثأر والانتقام فعلم أن جهده ضائع في حمل أخيه على غير ما انتوى فقال في نفسه لأسعين . إلى الأمير وأتمس منه أن يطلق سراح هذه

المسكينة وأن لا يلطخ مجده بعار لا يمحي . ولسوف أجرؤ على حديثه في الأمير جوانب كريمة تشجّعني على ذلك .

ومضى لوقته إلى قصر الملك وكان الأصيل قد بدأ يحول لونه ويتوارى مع غروب الشمس فاستأذن على الأمير فأذن له فدخل وحيثما وسّلم بالإمارة ورفع إليه ما عرف من شأن ليلي وما سمع . وأنشده الأبيات مترجمة إلى الفارسية فاستاء الأمير كل الاستياء من فعل برد ولامه لوماً شديداً وقال :

— « ما كنا لنزيد هذه الفتاة ألماً فوق آلام الغربة

والوحشة . »

ثم أمر برئيس الشرطة وأنهى إليه أن يذهب إلى دار برد بن طريح ويدعو فتاة عربية فيها تسمى ليلي إلى أن تنزل عليه ضيفةً عزيزة كريمة في دار خاصة وأن تجري عليها المكارم حتى ينظر في أمر عودتها إلى أهلها وديارها . فأثنى جبير بن طريح على الأمير الثناء المستطاب وشكر له أريحيته وفضله وصحب رئيس الشرطة إلى دار أخيه برد ليهدئ من روع ليلي ويحيطها بالأمن والطمأنينة . . .

واتفق أن دخل الكاهن الأعظم على الأمير بعد ذلك فروى له قصة ليلي واستشاره في أمرها فناجى الكاهن النجوم والكواكب وصلى لها واستوحاها الهداية في شأن الفتاة ثم قال للأمير :

— « تقول النجوم المقدسة : ستنكب بلادنا بالفتن الشديدة من أجل هذه الفتاة وستطأ العرب بلاد فارس وتكثر المواقع بيننا وبينهم ويكثر فيها القتل والنهب والسلب . وتقول أيضاً النجوم المقدسة : إن وجود هذه الفتاة على أرض فارس نعمة وبركة فالنصر على العرب محقق لنا ما دامت فينا . . . وقد تستخدمها فارس لتدراً عنها أمراً ترى فيه خزيًا وعاراً . . . »

فنزلت كلمات الكاهن على قلب الأمير برداً وسلاماً فأصدر أمره بالإمعان في تكريم ليلي والحفاوة بها وشمولها بآيات التعظيم وبأن تتوفر على خدمتها الرجال والنساء ولكن أمر كذلك بأن يضرب حولها نطاق شديد من الحراسة فلا يزورها أحد ولا تزور أحداً . . .

عاد لكيز إلى الجزيرة واجماً ساهماً تمزق أحشاءه الأحران
ويعصف بقلبه الخزع على ابنته والعجز الذي حال بينه وبين
إنقاذها ويلوم نفسه على أنه لم يفتدها بدمه فقد كان الأولى أن
لا يذهب بها برد بن طريح إلا بعد أن يدوس على جثته فما
انتفاعة بالحياة بعد اليوم مملوءة بالغم ملوثة بالعار .

ولم ينفك طول الطريق تهجس به الهموم والخواطر السود
لا يكلم غلماناً ولا يكلمونه إشفافاً منهم عليه ورعاية لسكوته
حتى وصل إلى الجزيرة وذاع في أنحائها خبر اختطاف ليلي
فقابلته القوم بعاطفة متضاربة فما زال فيهم أناس حائقون على
لكيز فواتهم الفرصة للتعنيف والشماتة .

وتلقى أخوة ليلي النبأ الأليم فأقامهم وأقعدهم وودّوا
لو يعمدون إلى سلاحهم ويطيرون إلى ليلي وينقذونها من براثن
الذل والسبي والعار ويسفكون في سبيلها دماءهم حتى آخر قطرة
ولكن أنتى لثلاثة فتيان أن يحاربوا دولة برأسها فليس لهم إلا ابن
عمّهم البراق يستصرخ القبائل وينهض بها إلى حرب الأعاجم
والرجوع بليلى عزيزة نقية .

أجمع الفتیان الثلاثة على أن يذهبوا إلى البراق ويستفزوا
حميته ففهما بلغت إساءة أبيهم إليه فليلى ابنة عمته وبنت قبيلته
وشرفها من شرف القبيلة وهو رئيسها وزعيمها وحسب هذا سبباً
يدعوه إلى أن يمضي إلى نجدتها وينفر ويستنفر العشائر إلى
انتزاعها من هون الأسر وشقائه بلكه ما يعرفونه فيه من نخوة
وشجاعة وكرم نفس وحب ليلي متغلغل في الضلوع .

ذهب الفتیان الثلاثة إليه فلقوه في خبائه هائجاً هياج الأسد
فسكن جأشه ورحب بهم وبأدرهم قائلاً :

— « أمسكوا يا أبناء العم . إني أعرف لماذا جئتم إلي .
فوقق من روعي بيده لأبذلنها رخيصة سمحة في سبيل ليلي .
أرسلت أخوتي منذ قدم عمي لكيز يستصرخون العشائر وسنشهروها
حرباً شعواء على إiyad والأعاجم حتى نعود بزين العذارى وغرة
القبيلة . »

فارتقى أخوة ليلي عليه يقبلونه ويشدون على يديه شاكرين
يكاد الدمع يطفر من أعينهم ويكاد جميل البراق يحبس أنفهم
عن الكلام والاستفاضة في الشكر الجزيل .

وكانت أم الأغرة في تلك الساعة توغر صدر أخيها كليب
وتغريه بتأليب القبائل والسير فيهم تحت راية البراق إلى بلاد

الحنونة اللثام ليعودوا بالحبيبة الغالية . وكان كليب يسمع كلامها صامتاً ويقدم زناد فكره فيمن يستصرخ وعلى من يعتمد في تلك الحرب الضروس فاستفزها صمته وحسبته في المتقاعسين الحاذين فأغاضت له القول وقرعنه منشدة :

«أراك عن الأمر المشتت غافلاً كأنك ناجٍ من خزياء سالمٍ
فإن امرءاً عن مثل هاتيك غافل فليس تراه في العلى وهو قائم
فسيروا ليلي أو رميتم بعارها لقد رسخت في عار ليلي الأراقم»

فقال كليب :

— «كفسي يا أختاه عن التقريع فوحق مناة لو كان لي ألف روح لما بنحت بواحدة منها فداء ليلي وإنما كنت أراجع النفس في الأهبة التي نتخذها في هذا الخطب الجلل .»
فقالت أم الأغر :

— «اجمع أخوتك وسيروا إلى البراق وانظروا معه ما أنتم فاعلون .» فقال كليب .

— «هو ذاك يا أم الأغر . . .»

وعرج كليب على أخبية أخوته فذهب بهم إلى البراق فالتقوا بأخوة ليلي عنده فواسوهم ووعدوهم بالنصرة والعون .
وحدثوا البراق في ذلك فقال :

— « وهل يداخلك الشك في هذا يا كليب والله لننقذن^١
 ليلي من أشداق الوحوش وأظفار الذئاب . . . »
 وقطع عليه الكلام رجوع أخوته فجزع لما رأى علامات
 الأسى بادية في أعينهم فبادرهم قائلاً :
 — « ما وراءكم أيها الأحباب . إني لأرى الكآبة وشحتكم
 بخمارها الأسود . » فقال كبيرهم :

— « خذلنا معظم قبائل ربيعة فلا مضر ولا بكر ولا جميع
 بطونهما رضيت أن تهب للقتال وأرسلنا نستنفر قبائل قضاة وطي
 وسدوس ومن إليها فما أجابنا أحد أفيخوضها بنو تغلب وحدهم . »
 فقال البراق :

— « أجل . أليسوا الأرقام . على أن بني أسد ستمشي
 معنا فهيّا بنا يا أخوتي وأحبائي نعدّ لها الخيل الجياد والبيض
 الحداد والسّممر الصّعاد . »

وسار البراق إلى فارس في بني تغلب وبني أسد وهو ينشد :

أمن دون ليلي عوّقتنا العوائق ^٢	جنود وقفر ترتعيه النقائق ^٣
وعجم ^٤ وأعراب ^٥ وأرض ^٦ سحيقة ^٧	وحصن ^٨ ودور ^٩ دونها ومغالق ^{١٠}
أليلي استطالت ليلتي قبل هذه	وقد بات دمعي وهو في الحد دافق ^{١١}
فكيف وقد أصبحت في دار غربة	وأسلمك الشيخ الجهول المنافق ^{١٢}

أليلى وأنت القصد قد غالك النوى
فلا بد من عنف وزحف ومحنة
فمن مبلغ برد الإيادي وقومه
ستسعدني البيض الصوارم والقنا
رمى الله من يرمى الكعاب بريبة
وفعل لئيم يا ابنة العم سابق
وأفلح إنسان من الجهد زالق
بأني بثاري لا محالة لاحق
وتحملني القب العتاق السوابق
ومن هو بالفحشاء والمكر ناطق

وما زال سائراً بعسكره وقواده أثناء الليل وأطراف النهار
يطوفون بالدساكر والقرى والقفار والسهول ويصعدون في الجبال
ويهبطون الأودية حتى بلغوا أول حدود فارس عند مدينة
« كرخاء » فنادى بالوقوف والاستجمام استعداداً لخوض المعركة
في الفجر المقبل فضربت الخيام وأبركت الرواحل وأطلقت
الخيول وقضى القوم سحابة يومهم يشحذون السيوف ويقومون
الرماح والأسنة ويعدون عدة القتال والنزال.

وعند انبلاج الفجر انقضوا على المدينة وأعملوا سلاحهم في
عسكرها فأبادوا المقاتلين وأسروا الهاربين واستولوا على ما وقع
في أيديهم من غنائم ولباتوا ليلتهم نشاوى بنحمر النصر تكاد
قلوبهم تقفز من صدورهم وثباً إلى عاصمة فارس ليخوضوا
فيها غمرات القتال إلى ليلي فينقذوها ويعودوا فائزين .

وتفأل البراق من عاقبة المعركة الأولى وما أصابوه فيها

من نصر ميين فلما أوى إلى مضجعه في مساء ذلك اليوم يأخذ
لنفسه فيه نصيباً من الراحة قبل استئناف السير في صباح اليوم
التالي لم يستسلم إلى النوم بل استسلم إلى الخيال يضرب في بواديه
ومفاوزه وينتقل به الفكر إلى ليلي يستشف من وراء حجب
الغيب كيف هي وأنتى تكون وكيف سينقض على حرّاسها
جميعاً ويدبحهم ذبح النعاج ويعود بليلي طاهرة الذيل باسمه الثغر
وضّاحة الجبين .

وعند انبلاج الصبح جمع فرسانه واستأنفوا الغارات فما دخلوا
قرية إلا دمّروها بعد قتال أو حقنوا دماء أهلها وحرّاسها إذا
أعرضت عن قتالهم وسأمت لهم ما فيها من أموال ونجائب وسلاح .
ولازمهم النصر حتى بلغوا عاصمة فارس فخيّموا على
مقربة منها وبقوا على ذلك عدّة أيام يجمعون جموعهم وينظّمون
صفوفهم ويستعدّون لليوم العظيم الذي يدخلون فيه المدينة
ويذيقون الفرس ضروب النكال .

وحان اليوم الموعود فلبسوا السلاح وتجهّزوا للموقعة الفاصلة
وطاف البراق بأخوانه المحاربين ينفخ فيهم روح العزم ويشدّد
قواهم ويشير حفائظهم ويمنّتهم بالأسلاب والكنوز فإذا هم
يضارعونه عزماً وهمّةً وشوقاً إلى التزال والجلاد .

وطاف البراق طوفته الأخيرة فملاً عينيه وأذنيه وقلبه بما رأى

وسمع من تحفُّز الفرسان وصهيل الخيل وقعقة السلاح فنادى
فيهم :

— « يا بني تغلب الشجعان . يا بني أسد المغاوير . شدوا
على العدو شدة الرجل الواحد ولا تأخذكم فيه رحمة ولا هوادة
وروا أسننتكم ونصال سيوفكم من دمائه ليعرف أن العرب
لا يستنيمون إلى الضيم ولا تُغمر لهم قناة . . . »

فدوت أصواتهم تشقّ عنان السماء صائحين :

— « لبيك يا براق . لبيك يا براق . »

وسالت بهم الأودية والبطاح وفي طليعتهم البراق لا بساً لأمته
الكاملة ومجرّدا سيفه بيمينه قافراً به جواده قفزات ترعب الأسود .
وما كادوا يقتربون من مدخل العاصمة حتى فوجئوا بما لم
يكن في الحساب فقد انهالت عليهم النبال والحجارة من رماة
متدارين وراء الأسوار والقلاع فقتلت منهم عدداً كبيراً وأشاعت
الفوضى والاضطراب في صفوفهم ومزّقهم شرّ ممزّق فما كان
لهم عهد بهذا الضرب من القتال فنالت الفجاءة منهم منالها
واستتمت لهم الهزيمة عندما خرج جيش فارس إليهم ما بين
رجالة وفرسان وراكبي الفيلة وساقة المجانيق تنبعث منها الحجارة
كالمطر المدرار فقتل من العرب من قتل وأسر من أسر ولاذ
بالفرار من لاذ .

وأبلى البراق في تلك المعركة بلاءً حسناً ولكنه أيقن أن لا قبيل لهم بالغلبة على أولئك المردة في عديدهم وعُدّدهم فلم يفلول رجاله ونأى بهم بعيداً عن مرمى النبال والحجارة وعقد هو ورؤساء الألوية اجتماعاً تداولوا فيه الرأي فقرروا أن يتفرقوا في قنن الجبال ويعتصموا بها ويشنوا على العدو غارات مفاجئة وأن يستدرجوه إليهم كتيبة كتيبة فلو واجههم مجتمعين لقضى عليهم لا محالة .

فأوعز البراق إلى كل رئيس لواء أن يتواري ورجاله وراء هضبة عيبتها له وأن يتخذوها معقلاً يحتمون به ويقتنصون منه جنود العدو فرداً فرداً أو جماعة جماعة فإن معاقل الجبال تجنّبهم هجمات القبيلة وحم المجانيق . فأمنوا على كلامه وهموا بالتفرق إلى معاصمهم فاستوقفهم لكيز وقال :

— « قفوا قليلاً يا أبنائي فصدري يعتلج بكلمة يريد أن يفصح عنها اللسان . »

فتطلعوا كلهم إليه صامتين ذاهلين كأنّ على رؤوسهم الطير فاستأنف لكيز حديثه قائلاً :

— « اسمحوا لي وأنا أكبركم سنّاً . . . » فقاطعه البراق وقال :

— « ومقاماً وجلالاً يا سيد العشيرة . » فقال لكيز :

— « حييت أيها البطل النبيل . . . إنك تدعوني بسيد
العشيرة في حين أنك أنت سيدها وحامي ذمارها فقد سودتك
عليها وألقت إليك مقاليدها فرعايتك إياي إنما هي بدوات
ما تنطوي عليه جوانحك من نبالة ومكرمة . » فقال البراق :
— « أنت يا عمّاه فخرنا وملاذنا فهيئات تنسى العشيرة
مأثراتك وجميل فعالك . » فقال لكيز :

— « دعنا من الحديث عن الماضي ولناخذ بيومنا الحاضر
وغدنا المقبل . . . قلت إني أكبركم سنّاً فباسم الحضر والغياب
أرجو منك يا ولدي أن تصفح عني فيما أسلفت إليك . . . »
فحال البراق بينه وبين تتمّة الكلام وقال :

— « عفواً يا عمّاه فأنت فوق مبسوط العذر . » فقال لكيز :
— « كلاًّ يا ولدي . . . إن ضميري يخزني وخزات الإبر
فقد كنتُ سبباً في شقاء ليلي وسببها وتعريضها للأنوازل الدثّهم .
وكنتُ سبباً في تمزيق نياط قلبك وإن أخفيت ذلك عن أعين
الناس وانطويت به على نفسك كبراً واستعلاءً . . . » فعاد
البراق إلى مقاطعته وهو يقول :

— « حاشاي أن أستكبر عليك يا عمّاه فإنك لم تفعل إلا
ما أيقنت أنه الخير . . . » فقال لكيز :
— « هو ذاك يا ولدي . . . فقد اعتقدت أنني أسعد ابنتي

وعشيرتي فضلاً عن أن خور العزم ونحلة الحياء ألبما لساني
فما استطعت أن أقول : لا . لأمر اليمين عمرو بن ذي صهبان . «
فبادر كليب يقول :

— « وفيمَ هذا كله يا سيد لكيز وعلام تنبش أجدات الماضي
فما فينا إلا لك راحم وعذير . . . » فقال لكيز :
— « شكراً لك يا كليب . . . إن صدري يروح تحت
أثقال الهموم فخذوني أنفُس عني لعلّي أنجو من تبكيت
الضمير . . . »

والتفت ثانية إلى البرّاق وقال :

— « وكنتُ سبباً كذلك في موت أخيك الظليل يوم عدت
من البحرين وتجاهلت إساءتي وكررت على قضاة وطي
تحمي الحمى وتردّ غارات الخصوم وتنقذ الرهائن وكانت ليلى
في السبايا . ولكن شاء سوء الطالع أن يسقط أخوك الظليل في
ميدان الشرف وهو يحارب معك ومع أخوتك جنباً إلى جنب . . . »
وسكت لكيز قليلاً يتنفس ويستجمع قواه وأطرق البرّاق
حزيناً كئيباً فاستأنف لكيز الكلام وقال :

— « وشاء كذلك سوء الطالع اليوم أن تفقد أخاك غرسان
فيمن فقدنا من رجال فقد صُرع هو أيضاً في ساحة المجد مدافعاً
عن شرف ليلى وشرف العشيرة . . . » فقال البرّاق :

— «واحرّ قلباه على غرسان . . . لقد نكأ موته جراح قلبي كلها . . . » فتابع لكيز كلامه وقال :

— «لقد كنتُ السبب في هذه النكبات وما أنتجته من آلام وأحزان وقطيعة وهذه الحرب التي أخوضها معكم جميعاً كنت أنا أيضاً السبب فيها ففي عنقي دماء القتلى من أبناء العشيرة فالدية فيهم فادحة والكفارة عنهم ثقيلة ولست أقوى على شيء من هذه ولا من تلك سوى أن أتقدم الصفوف وقد فعلت وأكفرت بسفك دمي عن ذنوبي وآثامي . . . »

فسمع في الحضور نشيج خافت انبعث من صدور أبنائه الثلاثة الذين كانوا يستمعون إليه حابسين زفراتهم في صدورهم حتى فاضت وانطلقت فنظر لكيز إليهم نظرة كلها عطف وحنان وقال :

— «لا تبكوا يا أبنائي فما خلق الدمع للرجال . . . » ولم يستطع أن يتم كلامه فقد غلبته الدمعة المحبوسة فبكى هو أيضاً . ثم كفكف عبراته ونخاطب البراق قائلاً :

— «سأرتخص نفسي وأبيعها ببيع السماح كفارةً وقرباناً فإذا أدركني الموت فوصيتي إليك يا برّاق :

أن تصفح عني وتستصفح كل من أسأت إليه غير عامد .
أن تأخذ كل ما أملك من سلاح وإبل وجياد ومعزى

وتوزعه على أسر العشيرة المفجوعة بأبنائها في هذه الحرب .
 أن . . . »

وتوقف قليلاً قبل أن يعرب عن الأمر الثالث الذي يوصي
 به ولكنه تمالك نفسه وقال :

— « أن تتزوج ليلى فقد أزوجتُكها وهؤلاء الحضور
 شهود عليّ ولسوف تختلج روعي سعيدة مغتبطة وأنا تحت التراب
 بهذا الزواج . . . »

تضاربت العواطف في صدر البراق لدى سماعه هذه
 البشرى فكان نهياً مقسماً بين سعادة طارئة ولكنها معلقة بأذيال
 الأوهام والأحلام وبين حزن على أخيه غرسان وعلى القتلى من
 بني جلدته وبين يأس قاتل يفتّ في عضده فدون ليلى بجيوش
 ووحوش . فبقي مفكراً ساهماً فحمل لكيز سكوته على غير
 محمله وقال :

— « لست أدري يا ابن أخي أغيّرت الحوادث والأيام
 قلبك وعاطفتك أم لا . فإن كنت لا تزال على حبك لليلى
 وشغفك بها فإنه يسعدني ويسعدُها ويسعدُ أخوتها وعشيرتها جميعاً
 أن تكون لك وأن تكون لها . . . »

فسارع البراق إلى عمه لكيز يتبادل وإياه القبلات وتوالى
 عليه الحضور يقبلونه ويهنّئونه وكأنما البشرى قد نفخت فيه

روحاً جديدة وعزماً جديداً فأقبل على عمه لكيز يقول :
 — « نعمت البشرى يا عمّاه ترفّتها إليّ ونعمت هذه الرعاية
 تغمرني بها فعش ممتعاً بالحياة لتراني وليلى زوجين هانئين
 فوحق من وهب لي الحياة لأخوضنّ إلى لبلى بحراً من الدماء واللهب
 وأغبالاً من السيوف والقنا وسواء عشت أم غالي الردى فحسبي
 أن تنعم روحي برجوع ليلي إلى الديار مصونة عزيزة . »
 ثم وجهه الكلام إلى رؤساء الألوية فقال :

— « هيتا أيها الأحباب والأخوان إلى أمكنتكم من الجبال
 والمعقل وابقوا فيها ولو أياماً وأشهرًا حتى ترد لكم أنبائي وتتهيأ لنا
 أسباب النصر . فإذا تعقبكم جيش فارس فأذيقوه الوبال من
 حيث لا يراكم . وإن طغى عليكم برجاله وعتاده فأخلوا له الأرض
 وانسحبوا بغنائمكم إلى أوائل حدوده فلا بدّ أن نتصر عليه
 ولو بعد حين فالنصر حليف الحق والعزة والشرف . » فقال
 كليب :

— « وماذا أنت فاعل يا برّاق . » فقال البرّاق :
 — « سأعود إلى ساحة القتال وأغافل العسس والهند فأتزود
 من أخي غرسان الممدّد في العراء بالنظرة الأخيرة . » فقال
 أخواه :

— « نذهب معك . » فقال البرّاق :

— « ما كنت لأحرمكما هذا الوداع غير أن جلبة جيات
ثلاثة وصليل سلاحنا معاً سيلفت إلينا الأسباع والأبصار . . .
فسيروا جميعاً على بركة الهدى وليجمع كل رجاله وليتوغّل بهم
حيث أشرت متجنّبين مزالق الهلاك وسألحق بكم طال الزمن
أم قصر . . . »

ولم ينتظر البراق حتى يسمع الجواب بل وثب إلى صهوة
جواده ونزل به راجعاً إلى ساحة المعرك سالكاً إليها ملتوي الدروب
التي تخفيه عن الأنظار . وكان في أثناء سيره تطرق مسمعه
أصداء سنابك الخيول الضاربة في مناكب الجبال وأصداء
أصوات الفرسان تتنادى وتتداعى فعلم أن قومه يتحركون إلى
مواقعهم الجديدة حتى إذا ابتعد في مسيره تلاشت الأصداء
فقدّر أنهم بلغوا مكانهم الأمانة .

ولم يفتأ البراق وهو راجع إلى أخيه القليل يفكر في هذا
الجيش الفارسي الذي فاجأهم بخيله ورجله وفيكاته وآلاته فأضاع
عليهم فرصة الانقضاض على العاصمة وإنقاذ ليلي من مخالب
برد بن طريح أو من أنياب أمير فارس . ولقد كان وثق بالنصر
كل الوثوق لما عرف من أهل « كرخاء » وهي أول مدينة فارسية
دخلوها واستولوا عليها أن جيش فارس كله مشغول بقتال الهياطلة
يتلقى منهم الضربات القاسية والهزائم المنكرة . ولكن فات البراق

أن يعرف بعد ذلك أن الفرس والهياطلة قد استتبّ بينهم الصلح والسلام على جزية يؤدّيها الفرس كل عام وعلى شروط أخرى وعدوا بتحقيقها عن يد صاغرين وأن الملك رجع إلى عاصمته ذليلاً منكسراً يحرق الأرم غيظاً وأنه عندما علم بغارة العرب ظن الروم وحلفاءهم الغساسنة قد تألبوا عليه وهاجموا بلاده فأمر أن يخرج الجيش برمته إلى لقاءهم والتنكيل بهم ليعوّض عن الهزائم التي مُني بها في أرض الهياطلة . فلما عرف أنها غارة بعض البدو الرحّل من العرب وأنهم أدّبوا شرّاً تأديب أمر بالجيش فعاد إلى قواعده .

لم يعلم البراق وأنّى له أن يعلم بكل هذا فلو أحاط به لما دهش عند وصوله إلى ساحة المعركة حذراً مترقباً من أن يراها قاعاً صفصفاً إلا من جثث القتلى وأشلائهم لا جند فيها ولا عتاد فحدث نفسه قائلاً : أية مفاجأة جديدة يعدّها هؤلاء الزبانية . . .

غادر برد بن طريح منزله بعد أن لقي من عناد ليلى ما لقي
فأخذ يطوف بأزقة المدينة زائع البصر لا تقع عينه إلا على أشباح
وصور ولا يدري ماذا يكون موقفه من الأمير إذا أبت ليلى أن
تسير إليه راضية مستسلمة .

وشرع وهو سائر على غير هدى يفكر في وسيلة يتخذها
أو حيلة يستنبطها ليدرك بها من ليلى ثأره ومن الأمير عطفه
ورضاه فما فتح عليه التفكير بشيء يرتاح له ويطمئن إليه .
وذهبت به مطارح الفكر إلى استعمال القسوة ثانية وتصفيد
أسيرته بالأغلال وإعمال السياط فيها ولكنه راجع نفسه وعرف أن
القسوة لن تنيله مأربه ولعلها تقضي عليها وتزهق روحها فالموت
لا يخيف فتاة مثل ليلى وربما آثرت الموت فراراً مما أعدّه لها من
انتقام شنيع فمن خطل الرأي أن يمهد لها سبيل الموت فتخلع
ثوب الحياة وهي نقية الإزار مصونة العفاف .

وظل يطيل التدبر فلا يجد ثغرة ينفذ منها إلى رأي صائب
حتى أدركه المساء وحن موعده وفائه بعهد الأمير فقرّر قراره أن يعود
إلى ليلى لعل معاودة الحديث معها يفتح له مغلق الآراء . . .

واستدار على عقبه وعاد يذرع الأزقة بخطوات واسعة راجعاً إلى داره فدخلها وتوجه تَوّاً إلى ليلي فرآها على الحال التي تركها عليها فصاح ينادي زوجته بصوت زلزلت له أركان الدار فهرعت إليه فقال لها وهو يشير إلى ليلي :

— « لماذا أبطأت في تزيينها وتجميلها وإلباسها فآخر الحلّ والثياب . » فقالت زوجته مضطربة :

— « لقد . . . »

وقرّع الباب في تلك اللحظة فخفت تفتحه ناجية من الجواب متوقعة أن يكون الفرج على يد هذا القادم إليهم فقد كانت القينة أخبرتها أن أخا زوجها بلغ منه مصاب ليلي مبلغه فوعد بركوب كل صعب في سبيلها .

ولشدّ ما خفق فؤادها فرحاً ولعت عينها طرباً حين رأت أخا زوجها ورئيس الشرطة يدخلان الدار ويطالعاها بالتحية . فرحبت بهما في غبطة ظاهرة وخرج إليهما زوجها برد بادي الدهشة من زورة أخيه مصحوباً برئيس الشرطة أو من مجيء رئيس الشرطة مصحوباً بأخيه . وحاول فكره أن يتكشّف الدواعي والأسباب فما عثر على سبب يهدئ ثائرة أعصابه فتصنّع السرور بتلك الزورة وشارك زوجته في الحفاوة بهما والترحاب ثم قال :

— « أهلاً برئيس شرطتنا الباسل وبأخي جبير . إن مقدمكما معاً يغمرني بالفرحة الشاملة وإن يكن يثير في نفسي الفضول . لعلكما تقابلتما عند الباب . » فقال رئيس الشرطة :

— « كلاً يا سيدي برد . إننا جئنا معاً من قصر الملك فقد أمرنا مولانا الأمير بلاش أن نصطحب فتاة عندك تسمى ليلي . » فظن برد أن الأمير استبطاً ليلي فأرسل يطلبها فإذا تكون الحال لو أبت أن تسير إليه . أ يحملها رئيس الشرطة إلى القصر عنوةً وقسراً فإذا يكون شأنه هو والأمير بعد إذ زعم له أن ليلي ستأتيه طيعة راضية . ولكن ما شأن أخيه والمسألة . نعم إنه ل ذو مكانة أثيرة عند الأمير غير أنه ليس من جلسائه في اللهو والأنس ولا ممن يعدون له مجالس العبث والشراب فلا بد أن يكون وراء ذلك سر من الأسرار . فقال يجيب رئيس الشرطة :

— « كنت عازماً أن أصحبها الساعة إلى قصر مولانا . . . » وأحب برد أن ينفذ يده من إياها لو أبت فلا يظهر لدى الأمير في مظهر الكاذب المناق فقال :

— « ولكنني أخشى أن يرهبها زيتك العسكري يا سيدي فترفض الإذعان لأمر مولانا الأمير في حين أعلم أنه ينتظرها في القصر . » فقال أخوه جبير :

— « إن مولانا الأمير لا ينتظرها فلن تنزل في عداد جواريه

وإمائه وإنما أمر أن تخصص بها دار أنيقة تُجرى عليها المكارم فيها حتى يبت في أمر عودتها إلى أهلها وديارها فالبزة العسكرية لن تخيفها بل ستضمن لها الطمأنينة والإجلال . »

فنظر برد إلى أخيه نظرة تتقد بالشرر وأمسك عن أن يغلظ له القول في وجود رئيس الشرطة فضلاً عن أنه أخوه الأكبر وأنه قد يكون بريئاً مما أحاطه به من ريبة ومظنة . وعلل نفسه بأن ترفض ليلي الامتثال لرغبة الأمير فيستطيع غداً أن يتبين علة إخفاق مسعاه ويعرف من كمال له هذه الضربة القاصمة ويعاود إغراء الأمير بليلى فلا تفلت الفريسة .

وسرعان ما اضمحلت آماله عندما رأى ليلي تندفع من حجرتها إلى حيث كان رئيس الشرطة ومن حوله وتقول له :
 — « إني رهن إشارتك يا سيدي وطوع أمر الأمير فقد سمعت حديثكم وعرفت أنك جئت تصحبني إلى دار أنيقة تفضل أميركم فخصصها بي ريثما ينظر في عودتي إلى أهلي ودياري فخذني معك وارفع جميل شكري للأمير وقل له إن ليلي بنت لكيز لن تنسى له هذه اليد البيضاء ما عاشت . »

فانحنى رئيس الشرطة إجلالاً لها ومضى بها يُنزلها في بيت الضيافة على مرأى من برد الذاهل وجبير المغتبط وزوجة برد وقينتها وقد كادت تطيران من الفرح ثم أسرعتا في التواري لتجنباً

غضب ربّ الدار .

وكان برد يغلي صدره غليان المِرْجَل ولكنه كان كاظماً غيظه ضابطاً أعصابه يجتهد في أن لا تبدر منه بادرة تسيء إلى رئيس الشرطة فينقلها إلى الأمير مكبرة مضخّمة فتعود عليه بالخسار والوبال . وما عتَم أن رأى رئيس الشرطة قد خرج بالوديعة وأغلق باب الدار وراءه حتى انفجر المِرْجَل الذي يغلي في صدره وصاح في أخيه متناسياً ما لأخيه عليه من حرمة وإجلال وقال :

— « ما معنى هذا يا جبير . أتكون عوناً لرئيس الشرطة عليّ . أتقف حجر عثرة في سبيلي . أتهدم بيدك في لحظة ما فكرت فيه عاماً كاملاً وبنيته في أشهر طوال . » فقال جبير متشداً رزيناً :

— « هوّن عليك يا برد فما كنتُ عوناً لرئيس الشرطة عليك فإنما صحبته إلى دارك لأرقب كيف ينفذ أمر الأمير ولأدخل على قلب الأسيرة الرضى والاطمئنان . » فقال برد محنقاً :

— « وما شأنك أنت والأسيرة . أنت الذي اختطفها أم أنا . أنت الذي وعد بها الأمير أم أنا . » فقال جبير في لهجة خطيرة :

— « ما كنت أنا لأرتكب مثل هذه الحماقة والسفالة . علمت بما فعلت فأردت أن أنقذك من التردّي في مهاوي الحسّة والنذالة فرجوت الأمير أن يرعى هذه الأسيرة ويجنبها الزلل ويعيدها إلى أهلها وديارها ليكسب فيها الذكر الطيب وحسن الأحدث . . . » فصرخ برد في وجهه وقال :

— « إذن أنت الذي عرقلت مساعي . أنت أخي الأكبر تطعنني في الصميم . وتضربني من وراء ستار . وتحقّرني لدى الأمير . ولكن أنا أعرف كيف أغريه بها وكيف أثنيه عن كرامته . » فقال جبير :

— « لئن طعنتك طعنة مضمونة الشفاء لقد نجيتك من طعنات الضمير فهذه لا شفاء منها . أيعميك الحق حتى ينسبك دمك العربي والنخوة العربية . أليست ليلي بنت لكيز . أليس ربيعة أختاً لإياد فإن كنا وجدنا أسباب الرزق هيئة ممحة في بلاد فارس أفنتسى أرومتنا العربية فنكيد لأبناء العرب وبناتهم ونعرّضهم للخطر والمذلة . » فقال برد :

— « البادي أظلم . لكأنك تناسيت احتقار لكيز إياي يوم خطبت إليه ابنته ليلي فردّني خائباً . » فقال جبير :

— « وماذا عليه من حرج . أليس الآباء أحراراً في اختيار أصهارهم . أليس من عادات العرب أن يشاور الآباء بناتهم

إذا ما تقدّم لهنّ الخطّاب . فهبّنه شاورها فما رضيت بك عروساً . « فقال برد :

— « هذا ما حدث . ولذلك اتخذتها هدفاً لثأري وانتقامي فقد آثرت عليّ يومذاك ابن عمها البرّاق . « فقال جبير :

— « وهل يليق بالرجال أن ينتقموا من النساء . إن كنت ذا تيرة فاشفها من البرّاق نفسه في نزال شريف . « فقال برد :

— « وبيت النار لأقطعنه إرباً إرباً لو رأيته في يوم من الأيام . « فقال جبير :

— « أتحلف ببيت النار وتعرض عن اللات والعزى . « فقال برد :

— « الناس على دين ملوكهم . « فقال جبير :

— « دَعُوك يا برد من حزازات الصدور وعدّ إلى سجايك العربية فنحن العرب طلاب ثارات ولكن في غير النقائص والدنايا ولا تحاول أن تتخلّق بغير أخلاقك فما أنت من يجحد المروءة وينكر الإباء . « فقال برد :

— « وما أنا من ينام على الضيم . « فقال جبير وقد نهض بهمّ بالانصراف :

— « نعمت مساءً يا برد . نم هادئاً ساكناً فالليل مجلبة

لصواب الرأي وهدوء البال . »

ومضى تاركاً أخاه يتقلب على أحرّ من جمر الغضى
وتتنازعه عوامل الخير والشر .

وكانت ليلي في تلك الساعة قد نزلت بدار الضيافة فبادر
إليها العبيد والإماء يببالغون في إكرامها ويتوفّرون على خدمتها
وقضاء حاجاتها فلا تكاد تفكر في أمر وتفتح شفيتها معربة
عنه حتى تراه قد قضى لها على أسرع وجه وأكمله .

كانت هذه الرعاية البالغة حقيقة أن تُدخل على نفسها
بواعث الاطمئنان ولكنها كانت من أمرها في حيرة وتساؤل .
فما معنى هذا التحول من الرغبة فيها إلى الرغبة عنها . ومن أن تُسلك
في نظام الإماء والحظيّات إلى أن تُفرد لها الدار الحميلة متوافرة
فيها كل أسباب الدعة والعيش الخفيض . أترى الأمير كان
أحذق وأذكى وأعلم باكتساب قلوب النساء فاستهل معرفته بها
هذا الاستهلال البارع ليصل منه إلى غرضه الخفي . أتراها
أخطأت في فهم الكلام الذي سمعته من رئيس الشرطة عندما
كان يحدث برداً وأخاه . نعم إنه كان يتكلم بعربية تخالطها
لوثة الأعجمي ولكنه أفصح بها عن رغبة الأمير في نقلها إلى
دار للضيافة ريثما يدبّر أمر عودتها إلى أهلها وديارها . وهذا هو
الذي حملها على أن تبرز لرئيس الشرطة وتبدي له خضوعها

وطاعتها لما أشار به الأمير . بل إنها وازنت بين بقائها في دار
برد عرضة للقسوة والغلظة وبين أن تكون تحت رحمة الأمير
ومجهول أهوائه فأثرت الثانية آملة أن تلمس من قلبه وتر
الشفقة فيقضي على ما تعانيه من أسقام وآلام .

ومرّت على ليلي في دار الضيافة حقة من الزمن كادت
روحها فيها تبلغ التراقي وكادت تُجنّ مما يحيط بها من ألغاز
وأسرار . فمن كرم ورعاية فضفاضة الحواشي والذبول إلى حراسة
عليها ضيقة الخناق فما كان يسمح لها بالخروج من الدار ولا كان
يزورها فيها إلا الكاهن الأكبر وإلا امرأة عربية تسمّى الرقشاء
زوجة وزير من وزراء الملك يدعى صريم الإيادي .

وثقت ليلي في إقامتها بتلك الدار أن الأمير لا يريد بها
شرّاً فما بدر منه في زوراته إياها ما يدل على شيء من نيّاته
السيئة فعلاماً إذن يحبسها في ذلك القفص الجميل . سؤال
ما وجدت له جواباً قط ولا أجابها عنه الأمير ولا استطاعت
الرقشاء أن تجيبها عنه على أنها زوجة وزير وصديقة طيبة القلب
مشفقة عليها راثية لحالها .

وكانت الرقشاء قد بلغت قصة ليلي فثارت فيها عوامل
الرأفة والشفقة بإحدى بنات جنسها فما زالت تجدد وتسعى
وتساعد ما منزلتها في الدولة حتى سمح لها بأن تزور الأسيرة كلما شاءت .

فأجفلت ليلي منها في بدء الأمر ثم رأت فيها الجليس الأنيس
فأفضت إليها بمكنون صدرها وطلبت إليها أن تعاونا على النجاة
من أسرها والسماح لها بالعودة إلى دارها . فعجزت الرقشاء وعجز
زوجها عن تحقيق ذلك الرجاء وبقيت ليلي رهينة أمير فارس
لا يعرف سرّ رهنها إلا الأمير والكاهن الأكبر .

وكان الكاهن الأكبر يزورها الفينة بعد الفينة فهو الرجل
الأول في المملكة تفتح له الأبواب الموصدة ولا يجرؤ أحد أن
يعارضه في أمر ولا أن يوجه إليه سؤالاً . وكان يوهم الأمير
أن زيارته لليلي فرض واجب ليعرف ما تقوله فيها الكواكب
والنجوم .

ولما زار ليلي لأول مرة ارتاحت لزورته وطمعت بأن تظفر
بالفرج على يديه ولكن شدّ ما خاب أملها فيه عندما بدا لها
في زوراته الأخيرة شراً أثم يخفي تحت مسوح الكاهن روحاً
خبثته فقد أخذ يراودها عن نفسها ويمنّيها بالأمان الكبار ويريق
الشهوة يلمع في عينيه .

وبينا هي في خدرها ذات صباح إذ ارتعدت فرائصها
ذعراً لما رأت الكاهن الأكبر يفتح عليها باب الخدر ويدخل
منه ويبتدئها بالتحية قائلاً :

— « عمي صباحاً يا ليلي . »

فهرعت ليلي إلى مئزر تلفّحت به وقالت وهي ترتجف :

— « عم صباحاً يا سيدي الكاهن . » فقال متودداً :

— « ما بالك يا ليلي تنفرين مني وتضطربين من لقائي

وأنا لا أحمل لك في قلبي إلا المودة والحب . » فقالت وقد سكن

جأشها للهجته المتوددة :

— « وأنا أكنّ لك يا سيدي الكاهن كل تجلة غير أني

أصبحت برمة بالحياة يائسةً منها فعلامٌ تحبسوني لديكم .

هلاً أفرجتم عني وأطلقتم سراحي . » فقال :

— « هلاً رحمت هذا القلب المعضب الذي نزلت منه في

الصميم فأصبح لا ينبض إلا بدكرك ولا يتحقق إلا بحبك . »

فسكتت ليلي ولم تجب فلمع بريق الأمل في عيني الكاهن

الأكبر وقال :

— « كلمة مني تحلّ لك الموثق وتفتح المغلق وتطير بك

فوق أجنحة الهناء والسعادة . » وبقيت ليلي ملتزمة الصمت فقال

يزيد في إغرائه :

— « إذا أجبت نداء فؤادي غمرتك بسعادة لا تحلمين بها

ففي مقدوري أن أزوّجك من أمير فارس فتصبحي الملكة يوم

يتسّم العرش . » فقالت له في ازدراء واحتقار :

— « تريدني أن أكون حليّة الأمير وحليّة الكاهن الأكبر .

أي شيطان رجيم أنت أيها الرجل . « فقال :

— « إن النجوم والكواكب هي التي عقدت في قلبي حبك وغرامك وهي التي قادتك إليّ وقادتني إليك . ومن يدري فلعلّ لها غاية تريد أن تحققها من هذا الحب الذي أوقدت لظاه في فؤادي . إني أجهل اليوم تلك الغاية وربما أوحى إليّ بها في مستقبل الأيام فبدل أن تعدّي نفسك سعيدة بإيثار الكواكب إياك ونعمتها عليك بأن جعلتك حبيبة الكاهن الأكبر أراك تتدللين وتتمنعين . فكّري قليلاً في غضب النجوم وعصيانك أوامرها وتمردك على وحيها وإلهامها . « ودّت ليلي لو تهجم على هذا الوغد السافل الذي يمتن عقلها وتنشب أظافرها في عنقه فما لك ت نفسك وقالت :

— « لست من عبدة النار ولا من أتباع الكواكب والنجوم لأكون تحت سلطانها وفي متناول نعمتها أو نقمتها . ولست كذلك من عبدة الأوثان والأصنام فالله هداني إلى دينه القويم على يد راهب نصراني هو مثال للفضيلة والخلق الكريم . فلو كان لي أن أحكم على الأديان بصفات رجالها وكهنتها وبما عرفته في ذلك الراهب من نبيل ووزع واستقامة وما لمستة فيك من دناة وخسة ونفاق لقلت إن دين المسيح بن مريم دين السموات والسلام ودين المجوس دين الرياء والفحشاء فإنك المثال المحجّم للكبائر والرذائل . «

لم تدر ليلي كيف أفلت منها زمام الصبر والمواذعة فهاجمت الكاهن الأكبر هذا المهجوم العنيف فكانت كالماء الذي طال إسخاناه حتى انفجرت به القيدُ فقاض وسال . ولقد توقعت أن يهيج كلامها ذلك الثور الرابض الرابض فصيح ما توقعت ورأت الكاهن الأكبر ينتفض انتفاضة الذئب وينهض من مكانه ويقرب منها ماداً ذراعيه وقد جحظت عيناه وحلك وجهه وارتجفت لحيته وهي لا تدري أيريد أن يضمها إلى صدره أم يعصر رقبتها بيديه الأثيمتين فوثبت من مكانها وجرت تتدأري وراء مقعد كبير وهي تقول :

— « حذار أيها الوحش فلو خطوات خطوة واحدة إليّ »
ملأت هذه الدار صياحاً ليهرع إليّ العبيد والإماء والحرّاس ويرواني أي حماة يتمرّغ كاهنهم الأكبر . »

لم يحفل الكاهن الأكبر بوعيدها واستمرّ مندفعاً إليها فشرعت ليلي تصيح وتصرخ قائلة : المعونة . المعونة . إليّ . إليّ . ووقعت يدها على المكحلة وكانت قريبة منها فقلدته بها فصدّها بيده الغليظة فوقعت على الأرض يسيل منها الكحل على الطنافس النفيسة . وأصبح الكاهن على قيد سنان رمح من ليلي فاستجمعت قواها ورمته بمقعد كبير كان أمامها وهي لا تألو تملأ الغرفة صياحاً . فشاء أن يتحاشاه فعلقت أردانه به وفقد

توازنه فتعثر وسقط وهو ينحور خوار الثور الذبيح . فطارت ليلي إلى الباب وكان نفرٌ من الخدم والحراس قد خفوا إلى الحجرة على صياح ليلي واستغاثتها فهاهم أن يروا الكاهن الأكبر منطرحاً إلى الأرض يحاول النهوض فسارعوا إليه وأنهبوه وانكبوا على يديه يلثمونها وعلى رداءه يتمسحون به وهم يرجون أن لا يكون قد أصيب بمكره فقال لهم :

— « جزتكم الكواكب خير الجزاء يا أبنائي . لست أدري كيف تعثرت بهذا المقعد وأنا متوجه إلى الباب منصرف من زيارة ضيفة الأمير بعد أن اطمأنت عليها لأن النجوم كانت قد أوعزت إليّ أن أزورها في هذا الصباح وأتفقد حالها وأعني براحتها فقد تعدّها لأمر عظيم . »

أدركت ليلي أن جارها بالشكوى من هذا الوغد الزنيم ونشر ما انطوت عليه نفسه من خداع ومآثم سيذهب صرخة في واد فمكّانة الرجل من قلوب هؤلاء السّدّج البُلّه أو من هؤلاء الاتقياء أهل الورع والصلاح ستبعد عنه كل شبهة وريبة وتتهمها بالخبيل والهديان فسكتت على مضض ولا سيما أنه عرف كيف يعلّل سقطته فأرادت أن تجاريه في التعمية حتى ترى ماذا يكون من شأنه فيما بعد وأن تحتطب من خطبه فتقدمت منه وهي تقول :

— « عفواً يا سيدي الكاهن الأكبر . لعلّ سيدي لم يصب بأذى ولا سوء . » فقال لها بعد أن استدار إليها ورمها بنظرة أذكى من الضرام . :

— « كلاًّ يا ابنتي فالعثرة لم تكن ذات بال . ولقد شغلني الصلاة والمناجاة عن أن أتفادى في مسيري هذا المقعد الضخم . أستودعك النجوم . »

ومشى إلى الباب منصرفاً ففسح الخدم والحراس له في الطريق وانحنوا له إجلالاً وقبل أن يغادر عتبة الحجرة التفت إلى ليلي وقال وهو ينظر إليها نظرة ذات معنى :

— « ثني يا ابنتي أني سأنفذ كل ما توحيه إليّ النجوم في شأنك فلن أنساك ولن أنسى هذا اللقاء الجميل الذي استقبلتني به اليوم فلسوف أذكره واستمدّ منه طيب الذكر عندك عند الأمير . »

فمضى وشيعته ليلي متصنّعة الإكرام والإجلال وهي تحسب ألف حساب لهذا الإبلis اللعين .

وما إن تعود إلى مخدعها وتخلو إلى نفسها فيه حتى ترتمي على إحدى الأرائك خائرة القوى واهنة العزم وتطلق لعينها عنان الدموع . ثم تهض مكفكة عبراتها وتستوي بجالسة على الأريكة تفكر في نكباتها الجسام .

وتثور نفسها على ما أحاق بها من ظلم الإنسان فتشب واقفة وتذرع الغرفة طولاً وعرضاً تتقاذفها عواصف نفسها المحتدمة الثائرة ثم يهدأ جأشها قليلاً وتتجه إلى ربها تناجيه وتستمد منه المعونة في محنتها وتقول له :

« أيها الرب الذي عبدته دون الأصنام والأوثان ودون النار والكواكب لماذا تركني إلى أطماع الناس وأهوائهم . عرفتكَ القويَّ القديرَ فهلاً نصرتي . وعرفتكَ المنتقمَ الجبارَ فهلاً تأرت لي . علّمني الراهب أن الفضيلة محببة إليك وأن أهلها مقربون منك فلماذا سمحت بأن تكون فضيأتي سبب عذابي وشقائي . ماذا جنيتُ وأي ذنب ارتكبتُ لأثقل على سهام مسمومة من الخطوب والمحن . كنت العفيفة فصنت نفسي حتى عن أحب الناس إلي . وكنت الطيعة فأذعنت لمشيئة أبي على ما حملتني إياه من أثقال فوادح . وكنت الوفيّة فما لقيت في الحياة إلا الغدر والخيانة أفريضيك أن تخونني القوى فأزل وتنزلق قدمي في هوة الرذيلة لأنجو مما أعاني من تبريح وسقام . اللهم رحمتك فلم يبق في قوس الصبر منزع . . . »

وتسكت قليلاً ثم ينصرف ذهنها إلى أهلها وعشيرتها فتناجي نفسها قائلة :

« عجباً لأهلي وقبيلتي والعرب أجمع كيف ينامون على

الضيم والأذى ولا يهبتون إلى فداء ابنهم وصون عرضهم
وكرامتهم . عجبا للبراق وهو ربّ النجدة والنخوة والساعد
القوي والسيف البتار كيف لم يجمع الجموع ويستنفر العشائر
والقبائل ويقدم وهو في طليعتها لينقذ ابنة عمه المرهون شرفه
بشرفها . هتبيه سالاني وسلاحي وشغل قلبي بعروس سواي
أفليست ابنة عمه وبنت عشيرته . وأخوالي وأخوتي ما خطبهم .
إن كان أبي قد كلّ ساعده دون امتشاق الحسام فإنهم
كلهم فتيان أشداء يجول دم الشباب في عروقهم وإنهم كلهم
أبّاء الضيم . فقيم سكوتهم وعلام تقاعسهم . »
وبقيت ليلي على مثل هذا النجاء حتي نحاتت قواها
ويثست من أن يتداركها العرب بالفدية والإنقاذ واستقر في
ذهنها أنهم غير فاعلين فقد مرّ على أسرها واختطافها ربح
من الزمن كان يكفي لوصولهم إلى أرض فارس واقتحام المعقل
والحصون فيها ولم تعرف أن البراق ورجاله كانوا في ذلك اليوم
قد اجتازوا الحدود إلى مدينة « كرخاء » يعملون في رقاب أهلها
السيوف والرماح فارتمت إلى الأريكة وعادت إلى النحيب
والبكاء . . .

ظلّ البراق بعد وصوله إلى ميدان القتال يطيل النظر في كل بطحاء وحنية ويرقب الشباب واللوى ويتوقع أن يبرز الفرس على حين غرة من حيث لا يعلم . ولما طال انتظاره ولم يحسّ بحركة ولا نامة إلا أصوات الجوارح وهي تنقطن على الجثث أيقن أن الميدان خال من الأحياء والمقاتلة فترجل عن جواده وربط أرسانه إلى جذع شجرة وأخذ يمشي في تلك الساحة الرهيبة ويتفقد القتلى باحثاً فيهم عن أخيه غرسان حتى لقيه مكبواً على وجهه وقد جمد الدم على جراحاته ولقي إلى جانبه سيفه الطويل مخضباً بالدماء يشهد له بالشجاعة والبطولة . فأنحنى عليه يقبله ثم حمله وسار به إلى جواده فركبه ومضى يضرب في الفجاح والحقول ملتمساً بعض مشارع المياه .

وما برح سائراً على غير هدى مرخياً لجواده العنان حتى لقي جدولاً نهراً في غيضة كثيفة الشجر قامت في وسطها دار صغيرة ولاح له أن لا ديار فيها ولا نافخ نار ثم قال في نفسه : وماذا لو كانت مزدحمة بالسكان من كل بطل صناديد فأنا لهم جميعاً .

فوقف جواده ونزل منه وحمل أخاه غرسان على كتفه
وسار حتى حاذى ضفة الجداول فوضع أخاه ناحية وأقبل عليه
يغسله وينقيه من الدم والتراب ثم فرش له رداءً من ديباج
كان معه فأضجعه عليه وغطاه برداء آخر من الخزّ ريثما
يحتفر له قبراً يدفنه فيه .

ثم نزع البراق عن صدره الدرع ولأمة الحرب وخلع
ملابسه ونزل الجداول يغتسل ويدلك جسمه ويتترع منه صدأ
الدرع وعمد بعد ذلك إلى ملابسه فلبسها ورجع إلى أخيه
وكشف عن وجهه طرف الرداء وجثا يقبله ويبكيه ويندبه
ويرثيه ويقول :

بكاءٌ قتيل الفرس إذ كان نائياً	« بكيت لغرسان وحق لنا ظري
سريعٍ إلى الهيجاء إن كان عادياً	بكيت على واري الزنادقي وغى
وقحتم بكرياً وهزّ يمانياً	إذا ما علا نهداً وعرض ذابلاً
عليها فتى كالسيف فات المجارياً	فأصبح مغتالاً بأرض قبيحة

وأمسك البراق شجوه قليلاً ورجع لنفسه وعرضت بصيرته
لما هو عليه من حال تاعسة فتابع إنشاده وقال :

وفارق إخواناً له وموالياً	« وقد أصبح البراق في دار غربة
يرجع عبراتٍ يهجن البواكيا	حليف نوى طاوي حشاً سافح دماً

ولام نفسه على أن ذكر حاله ونسي حال ليلى وما تقاسيه
من ذلّ السبي وتمنّى أن تكون إلى جانبه تشاركه في البكاء
على أخيه غرسان فضى يقول :

« فليت لليلى نظرة فتعينني بها حجباً سبعاً بكى متواليا
واو علمت ليلى وكانت خبيرة بلحاء تباري العاصفات الدواريا
أما خبرت ليلى الغداة بأني أريد على غرسان عوناً مباكيا
لقد قطع الوصل الذي كان بيننا لكيز بغارات تشيب النواصيا »

ثم حدّق في أخيه بنظرات ملؤها الأسى والحزن وكان
التعب قد أخذ منه كل مأخذ فجلس إلى جانب أخيه ونصب
ركبتيه ووضع جبهته عليهما ليخلد إلى شيء من الراحة .
وكان في الغيضة غلام شهد مجيء البراق فتدارى بشجرة
ضخمة قريبة من المكان الذي نزل به البراق ورقب منها
كل ما فعله حتى لقد سمع ندبه رثاءه فحزن لحزنه وبكى
لبكائه . فلما رآه استلقى إلى ركبتيه نخرج من مكانه وأقبل إليه
ماشياً متخفّفاً الحركة فطالعه وجه غرسان تخالط إشراقه
صفرة الموت فثارت شجونه وأخذ ينتحب . فهبّ البراق
واقفاً عند سماعه النحيب واستلّ حسامه ليدفع به شرّ العدو
المغير فما وجد إلا ذلك الغلام ينشج ويلدرف الدمع فأغمد

سيفه وقال له :

— « ممن الغلام » فقال الغلام :

— « من إياد يا سيدي . » فقال البراق وقد لعن في سره
قبيلة إياد وأبناءها :

— « ومن مولاك . » فقال الغلام :

— « رجل يقال له صريم الإيادي هو صاحب هذه
الدار التي تراها وهذه الغياض المترامية حولها . » فقال البراق :
— « وأين هو . » فقال الغلام :

— « في المدينة يا سيدي وموعده أن يأتينا اليوم هو
وزوجته الرقشاء ليقضيا يوماً وليلة في هذا الريف الجميل ثم
يعودا إلى المدينة فالرجل وزير من وزراء الملك ولست إنحال
الغارة التي شنها الفرس على العرب بمافعته عن المجي فقد انهزم
العرب هزيمة منكرة وولوا الأدبار هاربين . »

فأهاج كلام الغلام حفيظة البراق فتماسك وقال :

— « أتعرف رجلاً يسمى برداً الإيادي . » فقال الغلام :

— « أعرفه كل المعرفة فكثيراً ما زار مولاي هنا وفي

المدينة غير أن مولاي لا يحبّه ولا يأتمنه . وأنت يا سيدي من
تكون . ومن يكون هذا الفتى الجميل المسجّي على الأرض . »
فتنهّد البراق وقال :

— « أنا رجل شقي تاعس يسمى البراق بن روحان وهذا أخي جنى عليه إقدامه وبسالته . » فقال الغلام :

— « لقد سمعت باسمك يا سيدي يذكره غير مرة برد الإيادي في زوراته لمولاي . » فقال البراق :

— « هل لك يا فتى أن تساعدني على حفر قبر لأخي أواريه فيه . » فقال الغلام :

— « أمرك مطاع يا سيدي . انتظرني ريثما آتيك بفأس ومِعُول . . . ولكن . . . ها هوذا مولاي صريم وزوجته الرقشاء قد أقبلتا . ها هي ذي قد ترجأت ودخلت الدار . . . انظر إلى هؤلاء الفرسان الأربعة الذين أدركوه . إنهم حراسه الأشداء . . . اعذرني يا سيدي فسوف يضرب عني إن لم يجدني في الدار . . . سأتيك بالفأس والمِعُول . »

وعدا الغلام عدو الظلم فوصل إلى مولاه وأفضى إليه بقصة البراق فاهتز صريم سروراً واغتبط بحسن الطالع الذي دفع إليه البراق ومكّنه منه وبدأ يحلم برضي الملك عنه وإنعامه عليه حين يطرح البراق عند قدميه مصفداً بالقيود أو يأتيه برأسه . فأمر غلامه بأن يدخل الدار والتفت إلى حراسه وأنهى إليهم بما يجول بخاطرهم ووعدهم بجزيل الجزاء إن هم استطاعوا أن يأسروا البراق أو يظفروا به حياً أو ميتاً . فامتشقوا سيوفهم

وانطلقوا إليه وهو في طليعتهم وكان البراق قد أوجس شراً من تهامس هؤلاء الفرسان فقفز إلى متن جواده وجرد سيفه الطويل وانتظر ماذا يكون من شأن هؤلاء الناس . فلما رآهم قد هجموا عليه شاهرين السيوف استعدّ للنزال غير مكترث كثيراً لهم فقتل خمسة رجال أمر هين عليه وإنه ليقوم نفسه بأكثر من هذا العدد . وما إن أصبحوا على مقربة منه حتى سمع رئيسهم وعرف أنه صريم الإيادي يقول له :

— « ألق بسلاحك يا براق واستسلم لأسريك نضمن لك الحياة حتى نسلمك للملك » فقال البراق :

— « وأي ملك تعني أيها الأعجمي الجبان . » فقال صريم .

— « ملكنا فيروز . أما أدبكم الهزيمة الشنعاء التي أوقعها بكم جنده وقواده . » فقال البراق وقد بدأ الغضب يستولي عليه :

— « وما موقفك أنت أيها العبد الذليل من هذا . أما أدبتك الخيانة والغدر فعرفت أي إثم اقترفت بتمرغك عند أقدام سادتك الفرس . »

فغمز صريم بطن جواده واقتدى به حرّاسه وانقضوا جميعاً على البراق فلقبهم البراق رابط الجأش ثابت الجنان

واقترع على أن يتفادى ضربات السيوف ويتقيها ثم لكز جواده
فطار به إلى ربوة عالية فلاحق به الفرسان الخمسة وعلى حين
غرة ثني عنان فرسه وانقضّ على الحراس الأربعة واحداً
واحداً فكال لهم ضربات قوية طرحهم أرضاً يلحقون تراب
الأرض . وعطف على صريم وسدّد إليه ضربة شديدة أطارت
السيف من يده فذهل وارتعب ولم يصح من ذهوله إلا ورأس
سيف البراق يداعب عنقه فأيقن بالهلاك فرفع يديه مستسلماً
وقال مسترحماً :

— « عفوك يا برّاق فقد جئتك طامعاً ورجعت عنك
نادماً وإنك لرجل بلامعين ولا نصير فامن عليّ بالسلامة
أكن لك عوناً . » فقال البراق بعد أن أبعد ذباب السيف عن
عنق صريم :

— « وهبتُ لك الحياة فما صريم إلا يادي طلبتي ولكن
برد . . . » فقال صريم .

— « لأمكننك منه يا سيدي فما هو من أكفائك . »
ثم قطع صريم للبراق العهد والميثاق على الوفاء والنصيحة .
فترجّل الفارسان وتصافحا وعزّى صريم قلب البراق عن موت
أخيه غرسان ودعا غلماناً وعبيده فعنّوا بجراحات حرّاسه وأمرهم
بحفر قبر لغرسان وانقلب إلى داره فجاء بالأكفان الفاخرة

فكفّنه بها وأتى بالطيب والغالية فطيبه بهما ثم واروه في التراب
وبكوا عليه جميعاً .

ونزل البرّاق في دار صريم عزيزاً مكرماً محفوفاً بالترحاب
فقدّم صريم له شهيّ الطعام ولذيذ الفاكهة ثم نادى صريم
زوجته الرقشاء فأخبرها بمكرمة البرّاق في عنقه وقال لها قصّي
على الضيف ما تعرفين من أمر ليلي ففعلت والبرّاق يستمع
لها مضطرب القلب حتى إذا سكنت قليلاً قالت له :

— « هل من وصية توصيني بها إليها فأني عائدة إلى
المدينة غداً . » فقال البرّاق :

— « خبريها بمقامي وقولي لها إني لن أغمد سيفي حتى
أنقذها من محنتها . » فقالت :

— « وماذا يا سيّدي لو صحبتني إليها في زيّ النساء ومكّنتك
من زيارتها . . . » فقال البرّاق :

— « لا أفعل ذلك أبداً فما كنت لأزورها في زيّ النساء
ولكن في زيّ الأبطال أنخوض إليها السيوف وأقتحم الصفوف
ولسوف أظل هائماً على وجهي حتى أستطيع أن أنقذها بحدّ
حسامي . . . » فقال صريم :

— « الرأي عندي يا برّاق أن تصحبني إلى الملك
فأقدّمك إليه على ما أعرفه فيك من خصال الشرف والنجدة

والبسالة فتكتسب ثقته وتحظى عنده وتستخلص ابنة عملك . «
فقال البراق :

— « يا صريم . مهما بلغ الملوك من العزة والجبروت
فإني لا أتواضع لهم فهيئات أن أهدر دم أخي غرسان أو أطل
وتر سبي ليلى فوحق خالتي وربّي إن تواضعي لعجوز هرمة
أقعد بين يديها وأقوم . وتأمرني بأمرها وتبسط عليّ لسانها أهون
عليّ من أن أتواضع لهم . . . وإنك لتشير عليّ بمشورة من
سقطت نفسه وذهبت مرعوته ووهي ذراعه وقصر باعه فلئن
جنيت اليوم الحيلة لأجنين النصر غداً ما بقي في يدي سيف
قاطع وقلب طامع وعشيرة صادقة . »

فسكت صريم مغلوباً على أمره فعاد البراق يقول :

— « ولست أرجو أن أزيدك بتزولي بدارك ثقلاً وحرماً
فإني منذ الساعة منفصل عنك شاكر لك وللقشاء كريم الحفاوة
فإن تفقدتني يوماً أو تفقدتني الرقشاء عرفت كيف أكون
عند الرغبة في والملتمس فوداعاً يا صاحبي . »

ونهض وانصرف تاركاً الرقشاء وزوجها في حيرة وحسرة .

وانقضت أيام كان البراق فيها يرود البقاع ويختلف
بين الهضاب والبطاح ينتظر من الله أمراً يفرج فيه غمته ويظفر
بمراده . وكان كلما طغى عليه الحزن ذهب إلى قبر أخيه

غرسان يندبه ويبكيه .

ولانه ليسير يوماً بجواده في بعض التلال مفكراً مهموماً
إذا به يسمع وقع سنابك خيل وصليل سلاح فأرهف السمع
والبصر فانجلى له الغبار بعد قليل عن كوكبة من الفرسان
مقبلة نحوه تصعد في التلّ الواقف عليه فقال في نفسه :
إما أنهم يطلبونني وإما أنهم يرتقون التلّ ليهبطوا منه إلى منبسط
الطريق . غير أن الكوكبة لم تكد تتجاوز السفح قليلاً وعلى
رأسها برد بن طريح حتى اختلج صدره ورحب بالقتال مهما
كانت نية القوم القادمين وشكر الزمن على هذه الهزة المواتية
يشفي فيها غليله من هذا الرجل الذي سام ليلي صنوف العذاب .
غير أنه عاد فحدث نفسه قائلًا : لو لم يتعرض برد لليلي
وهي في طريقها إلى أمير اليمن أما كانت اليوم زوجة الأمير تفصله
عنها البوادي والقفار . ولكن لا . فحسب الرجل أنه كان
عائياً غليظاً مع ليلي ليستحق صارم القصاص وحسب القصيدة
التي سمعها من الرقشاء عن لسان ليلي تستنجد به وتتمنى
أن يكون له عين ترى ما تعانيه من بلاء وعناء وتصف فيها
ما لاقته من ألم الضرب وعضّ الأصفاد . حسب تلك
القصيدة التي أخبرته الرقشاء أنها تتناقلها الأفواه وتسير بها الركبان
حسبها سبباً يدفعه إلى إغماد سيفه في صدر برد بن طريح .

وكأنه ارتاح لهذا الرأي فجمع أطراف أرسان جواده بيده اليسرى واستلّ حسامه باليمين وهزّه هزّات متوالية متحفزاً للوثوب والضرب به في أكباد من يتصدى له دون وتره وثأره . وأوشك الفرسان يتعدّون منتصف الطريق إليه فصاح فيهم صيحة شديدة اهتزّت لها جوانب الفضاء وقال :

— « قفوا أيها الناس فبيني وبين رئيسكم حساب يجب أن يسوّى فاتركونا وشأننا فيه وإلاّ تكفل سيني بكم وبه فأنا البراق بن روحان . . . »

ولم يدع برد بن طريح للفرسان فرصة الجواب فبادر وقال :

— « استعدّ للموت يا برّاق فهؤلاء الفرسان يطلبونك معي وإنك لأعجز من أن تنال منهم مأرباً . ولسوف يفري لحملك أحد عشر سيفاً كل واحد منهم كفيل بأن يمزقك شرّ تمزيق . »

وما كان من البرّاق بعد سماعه هذا التحدّي إلا أن انقضّ على الفرسان انقضاض الصاعقة المجنونة وانخرق صفوفهم وهو يزجر كالعاصف الهدّار ويلعب سيفه بهم ذات اليمين وذات اليسار ويكرّ فيهم ويفرّ متنكباً عن برد ابن طريح حتى سقط ستة منهم عن سروج خيولهم مشخّنين

بالجراح ولاذ أربعة بأذيال الفرار وبقي هو وبرد وجهاً لوجه يتصاولان ويتحاجزان .

وأدرك برد أن الدائرة ستدور عليه ففكر في الحرب ولكن تذكر كلام أخيه جبير يوم عنقه على قسوته وظلمه لليلى وألقى إليه أن يدرك ثأره من البراق في نزال شريف . فثارت في نفسه عند هذه الذكرى بقية من الشمم العربي والإباء فقرّر قراره أن يعدل عن الفرار وأن ينازل البراق منازل الخصوم الشرفاء فإما أن يموت وإما أن ينتصر على غريمه .

وانتشله من تفكيره صوت البراق يقول له :

— « إلينا الآن يا برد . . . فدافع عن نفسك ما تستطيع

فإني قاتلك لا محالة . » فقال برد :

— « سيعرف الحيّ منا من قتل الآخر . . . » فقال

البراق :

— « يعزّ عليّ أن ألوث سيفي بدم نجس مثل دمك

ولكن لا بدّ من عقاب خاطف النساء ومذلّ الحرائر . »

فقال برد :

— « دعواك العريضة شنشنة أعرفها من ربيعة فالسيف

هو الفيصل بيننا فإن قتلتك شفيت سخيمات صدري وإن

قتلني متّ كذلك مبتلّ الجوانح مشيّ الثأر فاعلم أن قتلي

لن يدنيك من ليلى فسوف يكون بينك وبينها قفار من الشوك
والسلاح لا قبيل لك باجتيازها . إن ليلى سترسك بعد أيام
قلائل هدية من ملك فارس إلى ملك الهياطلة . . . »

وتبسم برد ابتسامة نكراء بعد هذه القذيفة التي أطلقتها في
وجه البراق وطارت نفس البراق شعاعاً من هول ما سمع فكر
كرة عنيفة على برد وشد عليه بالسيف وهو يقول :

« نخشت أيها الثعلبان الماكر الغدار . . . نخذ هذه
الضربة ثمن سبي ليلى . . . وهذه الضربة فدى غرسان . . .
وهذه الضربة فدى القتلى من أبطالنا الشجعان . . . »

وخر برد بن طريح جثة هامة محطمة الرأس مهشمة
الأوصال . . .

رجع صريم وزوجته الرقشاء إلى العاصمة فسارعت زوجته إلى ليلي تطلعها على أخبار البراق وبادر زوجها إلى قصر الملك يضطلع بمهام الدولة وفي نيته أن يتحرى الأسباب التي من أجلها لا تزال ليلي في ديار الفرس حبيسة أسيرة فقد كان حاول في كثير من الكياسة واللباقة أن يعرفها من الأمير بلاش فما استطاع إلى ذلك سبيلاً وحال تكتم الأمير دون أن يكشف ذلك السر المصون . وكان رجاء صريم معقوداً في هذه المرة على الملك نفسه فقد يبوح له بما لم يبح به الأمير بلاش . وكان في نيته أيضاً أن يجتهد ما وسعه الجهد في استرحام الملك واستنداء قلبه ليفرج عن هذه الشقية المسكينة التي لعبت بمصيرها الأيام وأذاقتها الوبال والنكال .

ولقيه في القصر جبير الإيادي شقيق برد وكان ينحصر بالمحبة والإجلال فتحدثا معاً في شأن ليلي والبراق وأفضي كل إلى صاحبه بما عنده من أحوالهما فعلم صريم أن قد سبق السيف العذل وأن كل أمل في إنقاذ ليلي قد اضمحل وتلاشى وأن الأمور جرت في غيبته بحيث تزداد ليلي معها

محنة فوق محنة .

كان صريم يعرف أن ملك الهياطلة اشترط فيما اشترط ليرضى بالصلح بينه وبين الفرس أن يدفع له ملك الفرس جزية جسيمة في كل عام وأن يوفد إليه ابنته ليضمها إلى نسائه وحظياته فما وسع ملك الفرس إلا الإذعان والقبول .

وعرف صريم من جبير أن الكاهن الأكبر قد أشار أمس على الملك أن يرسل ليلي إلى ملك الهياطلة على أنها ابنته فاغتبط الملك بهذا الرأي وأنهى به إلى الأمير بلاش وطلب إليه أن ينقله إلى ليلي ويوصيها بالكتمان وقرّ قراره أن يأخذ منذ الآن أهبته للحرب إذا ما انكشفت الحيلة .

ووقف صريم كذلك من جبير على أن أخاه برداً قد علم بالأمر فذهب ينقله إلى البراق تشفياً وانتقاماً فهو يعرف أن البراق لا يستنم للهزيمة وأنه لا بد أن يكون جائساً خلال القرى والدساكر يتحين الفرصة للغارة والقتال .

وتشاور صريم وجبير فما وسعهما إلا أن يرثيا لحال ليلي ويأسفا على حظها العاثر فقوى الشرى كلها متضافرة على محاربتها وإيذائها . وأدرك صريم أن لا سبيل إلى الرجوع عما عزم عليه الملك فكلمة الكاهن الأكبر مقدسة لديه ولا سيما أنه يتكلم بوحي الكواكب والنجوم وحتى لو شاء الكاهن الأكبر أن

يعدل عن رأيه لما استطاع فقد أخبره جبير أن الرجل مات فجاءةً في ذلك الصباح .

وافترق الرجالان ومضى كلٌّ إلى شأنه . وانصرف ذهن صريم إلى زوجته الرقشاء الجالسة في تلك الساعة إلى ليلي وقدّر في نفسه أي ثورة من ثورات النفس تشهدها زوجته من لدن ليلي الفتاة البائسة الحريب .

ولم يخطئه الظن فقد ارتاعت الرقشاء لما دخلت على ليلي فوجدتها ثائرة هائجة هياج القفر أثارت رماله الزوابع فأمسكت عن الحديث حتى يسكن جأشها قليلاً وقالت في نفسها : إن أخبار البراق كفيّلة بأن تخمد هذا الأوار المحتدم ولكن أكون هناك بليّة جديدة أفقدتها الصواب . لا . فما بعد بليّتها أمر تثور له النفوس إلا أن يكون الأمير بلاش قد انتهى به الأمر إلى الطمع في جمالها .

وأعقب هياج ليلي هدوء أليم انقلب فيه الصباح إلى نحيب وبكاء فتشجعت الرقشاء وأقبلت عليها تواسيها وترطب خاطرها فقالت ليلي :

— « عذراً يا رقشاء فقد فقدت صوابي . أهلاً بك ومرحباً . »

فقالت الرقشاء :

— « مرحباً بك يا حبيبي . نعمت صباحاً . » فقالت ليلي :

— « لقد كان الأمير بلاش هنا منذ قليل . »

فأيقنت الرقشاء أن حدسها وتخمينها قد أصابا كبد الحقيقة فقالت في وجوم ووجل :

— « وهل في زورته ما يشير الشجون . » فقالت ايلي باكية :

— « جاء ينهي إليّ أمر أبيه الملك وهو أن ينفذني إلى ملك الهياطلة لأكون في عداد نسائه وحظياتة . ذلك هو شرط من شروط الصالح بينهما . » فقالت الرقشاء :

— « وما شأنك أنت وملك الهياطلة وأنى له أن يعرف بوجودك . » فقالت ليلي :

— « اشترط على ملك فارس أن تكون ابنته تلك السبية الحظيية فأراد أن يوفدني بدلها ويصون عفاف ابنته كأنما العفاف وقف على بنات الملوك . » فقالت الرقشاء :

— « تُرى من أشار عليه بهذا الرأي القبيح » فقالت ليلي :

— « علمت منه أنه الكاهن الأكبر فأدركت اليوم معني وعيده وتهديده كما كنت قد حدثتك بذلك من قبل . » فقالت الرقشاء :

— « إنك كنت أكرم نفساً من هؤلاء الفرس جميعاً
فطويت في صدرك سرّ مراودته إياك فما كان أجدر هذا
السافل أن يحفظها لك يداً بيضاء ولكن لقد انتقم لك الصلاح
والعفاف فالكاهن الأكبر مات فجأةً في هذا الصباح . »
فقال ليلي :

— « عرفت ذلك ولكن رأيه لم يمت معه ولا بدّ من
إنفاذه . » فقالت الرقشاء :

— « وكيف تنطلي الحيلة على ملك الهياطة . أليس لك
لسان ناطق . » فقالت ليلي :

— « لن أعدم لساني يا رقشاء ولكن هل يصدّقني .
وهيبه صدّقني فمن ينجيني من بطشه . » فقالت الرقشاء :

— « حبيبك البراق . »

فتبسّمت ليلي ابتسامة حلوة عند سماعها اسم حبيبها البراق
غير أن لون اليأس ما عتّم أن غشّي على حلاوتها فقالت :

— « وأين البراق مني في تلك الديار النائية . أحسبته
ملك العرب والفرس يجيئ الجيوش ويقودها إلى بلاد الهياطة
فاتحاً غازياً . وافرضي أنه فعل فمن يضمن لي السلامة حتى
ألقاه . » فقالت الرقشاء :

— « ربك الذي تؤمنين به . » فقالت ليلي :

— « هو ملاذي ومعتمدي ولولاه لقتلت نفسي أو لدنستها
بالإثم والنكر . » فقالت الرقشاء :

— « ومن ملاذك ومعتمدك بعد ربك . » فقالت ليلى :

— « البراق يا رقشاء . . . ويحي لقد آتته في حبه
وفائه وبسالته . . . أنكرت عليه سكوته وسكوت عشيرتي
في حين كان على رأسها يصارع الفيلة والدواهي السود حتي
مني بالهزيمة النكراء فلا بد أنه عاد إلى الديار يائساً مخففاً
ولا لوم عليه ولا تريب . . . » فقالت الرقشاء :

— « كلاً لم يعد . . . إنه على بعد فراسخ منك . »

فوثبت ايلي واقفة وصدرها يعلو وينخفض شوقاً وأملأ
ثم ارتمت على الرقشاء تقبلها وتقول لها :

— « حدثني عنه يا رقشاء . كيف هو . من قال لك إنه

البراق . » فقالت الرقشاء :

— « فيه وقار الكهل وحلم الشيخ على صباه ونضارة شبابه .

ربع القامة واسع الصدر عريض المنكبين أدعج العينين جعد
الشعر قد نزل عارضاه على مستهل لحيته . أما شجاعته فدونها

شجاعة الأسود وقد شهدته بعيني يغير على خمسة فرسان مدحجين

بالسلاح ومنهم زوجي فيقهرهم جميعاً ويكتبهم عن متون التحيل . »

فخفق فؤاد ليلى فرحاً وطرباً فقالت :

— « زیدنی یا رقصاء زیدنی . . »

فاستفاضت الرقصاء تحدّثها عنه وتقصّ عليها من أخباره
وتصف لها تحيّنهُ الفرص لإنقاذها وأخبرتها أنها تعرف أين تلتقاه إذا
ما أجمعتا على أمر من الأمور فيه نجاتها وخلّاصها . فاستمعت
ليلي لها بكل جانحة من جوانحها غير أنها رجعت إلى رشدّها
وطالعتها الحقيقة بوجهها الكالح فاسودّت الدنيا في عينيها
فقربُ البراق منها لن يحول دون مصيرها المشؤوم وهي بعد
أيام قلائل ستخبّ بها الجياد إلى ملك الهياطلة .

وأمعنت الصديقتان في الرويّة والتفكير لعلهما توفّقان
إلى رأي صائب خمير تكون فيه منجاة ليلي فطال تفكيرهما
دون جدوى حتّى لمع في خاطر ليلي بريق من الأمل فصاحت
في صديقتها :

— « اسمعي يا رقصاء . » فقالت الرقصاء :

— « سمعاً يا حبيبي . » فقالت ليلي :

— « لقد خطر ببالي خاطر أرجو أن ينهي به أسري

وعذابي فإن أنفق فعلى ليلي العفاء . » فقالت الرقصاء :

— « وما هو . » فقالت ليلي :

— « علمت من الأمير بلاش أنه خارج بعد غد إلى

القنص والصيد في جماعة من رجاله وأصحابه فسأبلغه أني رهن

إشارة الملك ممثلة لأمره راضية أن أحلّ محلّ ابنته في الرحيل إلى ملك الهياطلة وسأتوسل إليه أن يصحبني إلى الصيد حتى أودّع البادية وأتنفّس فيها وأحمل منها أنفّس التذكار فإذا أجاب ملتصقي رجوتك أن تبلغني البراق بذلك فيجمع جموعه ويرصد للموكب ويتزعمني منه ويردني على جواده ويطير بي هو ورجاله ونعود إلى الجزيرة آمين سالمين . » فصاحت الرقشاء :

— « نعمًا الرأي يا ليلي ونعمًا هذا الفكر الثاقب يا زين نساء العرب وإني لباعثة الساعة برسولي إلى البراق سواء أسمع الأمير باصطحابك إلى الصيد أم لم يسمح حتى يتأهب للأمر العظيم ولعله يرى فيه رأيًا . »

ثم نهضت فقبلت ليلي مودعة وهي تقول :

— « إذا حصلت في قبيلتك فاذكري أختك الرقشاء واسألي ربك أن يهدي قبيلتي إياد وأثمار فتكفّا عن موالاة الفرس وتعودا إلى أحضان قبائل العرب على ما نتمتع به هنا من رزق واسع وثراء عريض . » فقالت ليلي :

— « سأذكرك يا أختاه بالخير والشكر والثناء سواء عدت

إلى ربيعة أم طوقتني قيود ملك الهياطلة . . . »

وحان يوم الصيد فخرج الأمير بلاش في رجاله قبل

انبلاج الفجر ووراءه غلماناه يحملون عدد الصيد من أقواس
ونشاب ويسوقون النجائب مثقلة بأسفاط الزاد من طعام
وشراب. وكان الأمير وحجابه يمتطون فواره الخيل مرصعة
سروجها باليواقيت والجواهر ويتقدمها عدد كبير من البزاة
والصقور وكان قد ضرب لمن معهم من النساء تخوت من
الديباج والحرير فوق ظهور النجائب فجلسن فيها يرقبن
الصيد ويسعدن به. وكانت ليلي في النسوة اللواتي صحبن الأمير
فقد أجابها إلى رغبتها بعد إذ أكبر فيها طاعتها وإذعانها لما
طلب منها. وكانت جالسة في تختها شاحبة اللون بادية الاضطراب
تسرح النظر في أطراف البادية وجيلة خائفة لعلها تشعر
بدبيب ما تتوقع فلا يطرق مسمعها غير اصطخاب الطيور
ومحمة الخيول ولا تحس بغير دقائق قلبها تتوالى عنيفة
مسرعة.

واستسلمت إلى الهواجس تسائل نفسها ماذا يكون مصيرها
لو أخفق البراق في حملته. ولكن هل عرف البراق بخروج
الأمير إلى الصيد وخروجها معه. وهل تمكن رسول الرقشاء
إليه من أن يلقاه ويبلغه الخبر. وكيف استطاع أن يجمع
الجموع في حين سار في أهل فارس كلهم نبأ إياب العرب
إلى ديارهم مكثفين بالغنائم التي سلبوها وظفروا بها.

وعزَّ عليها أن تصدِّق أن أباه وأخوتها وأن أخوالها وأخوة
البراق يهجرونها ويعودون إلى مضارب خيامهم ويتركونها في
أيد أعجمية لا حامي لها بينهم ولا نصير .

وكلما مال بها الفكر إلى رحيل عشيرتها عن بلاد فارس
ملأ قلبها اليأس من نجاح البراق في الخطوة التي أوعزت بها
إليه ولا مت نفسها على تعريض البراق للخطر في غير جدوى
ولا طائل .

ولم تنفك تسائل نفسها وتضرب في بوادي الفكر حتى
أحسَّت بوثبات الخيول وصراخ الفرسان فهالت إلى نافذة التخت
فراَت الأمير وأصحابه قد عدا كلَّ منهم بفرسه في ناحية
يضيِّقون الخناق على سرب من الوعول برز لهم من وراء بعض
التلال . ثم لحق بهم نفر من الغلمان بالكنائن والجعاب وبقي
النفر الآخر في حراسة النسوة وخدمتهن .

ظنت ليلي أن الأصوات أصوات أهلها المغيرين فخاب
ظنها لما رأت أن الغارة غارة الأمير وصحابه على سرب من
الوعول وما إن تزفر زفرة الحسرة والنجية حتى تسمع ركض
جواد يدق الأرض دقات متطايرة كأنه لا يكاد يلمس وجه
الأرض وتحس أن الصوت منحدر إليها من خلف تختها
فتمدَّ رأسها من نافذة التخت فيقع نظرها على فارس هابط

إليها هبوط الصاعقة فتبيته فإذا هو البراق فيخفق صدرها
فرحاً وخوفاً. ويزداد خفقانه عندما يصل إليها ويناديها
باسمها فتدّ على النداء ويقف جواده قرب تختها وقفة قاطعة
فتفقد شعورها بالخوف وتقفز إليه فتستوي قاعدة على كفل
جواده وتتشبّث يداها بنحاصرتيه وساقاها ببطن الجواد ويستدير
منطلقاً بها انطلاق السهم على مرأى من النسوة المدهوشات وعلى
مشهد من الغلمان الذين أذهلتهم المفاجأة وسرعتها الفائقة
فنظروا إليه مشدوهين فاغري الأفواه .

وحينما استفاقوا من دهشتهم حاروا في أمرهم وتساءلوا
أيتعقبون ذلك السهم المارق والفرس المجنّح أم يلحقون بالأمير
وينخبرونه بما حدث فأثروا اللحاق بالأمير فذلك أيسر أمراً
وأسهل منالاً .

ومضت الساعات الطوال قبل أن يقف الأمير على جليلة
الخبر فألغى رحلة الصيد وأمر الفرسان أن يتعقبوا ذلك البحريء
البحسور وعاد وهو وبقيّة الركب إلى العاصمة .

وتلقى الملك الخبر بسخط لا مزيد عليه فعنف ابنه تعنيفاً
شديداً على إهماله وتهاونه ولا سيما أن الكاهن الأكبر كان قد
أسرّ إليه . بحديث النجوم في شأن هذه الفتاة ونجاة المملكة من
الذلة والعار على يديها .

وذاع الخبر في المدينة وشاع واستقبله الناس في عاطفة متضاربة فقد كانوا في الأيام الأخيرة قد وقفوا على قصة ليلي وعرفوا ما قدر لها من خاتمة المطاف فانقسموا إلى فريقين بين راض وساخط .

ووقع الخبر على الرقشاء وزوجة برد وقينتها وقوع الغيث على الأرض العطشى فكان أسعد الناس به وأكثر الراضين طرباً وحبوراً وشاركهين في تلك الغبطة صريم وجبير فإنهما على وفائهما للدولة الفارسية كان صوت الدم العربي يهيب بهما إلى استنكار الظلم المحيق بليلى والغاية التي أعدت لها .

ولم يكتف الملك بالفرسان الذين أطلقهم الأمير وراء البراق ويلي بل أصدر الأمر إلى وزرائه وقواد جنده بتعقب الهارين والقبض عليهما والرجوع بهما إلى عاصمة المملكة سالمين مخفورين ليتم وحي النجوم في ليلي ويُنزل أدهى صنوف العقاب بخاطفها البحري .

ولكن البراق ويلي كانا أبعد من أن يدركهما الجحادون في أثرهما فقد كانت مهرة البراق لا تجري وتركض على الأرض بل كانت تطير طيوئناً أسرع من البرق بل أسرع من الظن . وتمرّ بالسهول فتختطفها خطفاً وتعرج على الهضاب فتتجاوزها وثباً ويراها الراؤون فلا يكادون يلمحونها فيرجعون إلى

أعينهم وأسماعهم متسائلين مدهوشين .

وكان همّ البرّاق أن يجتاز أرض فارس قبل أن ينتشر
الخبر ويسدّ عليه الفرس المسالك والشعاب بالهند الغفير
والعسكر المجر فلا يستطيع لقاءهم وحيداً بلا سند ولا ظهير
بعد إذ هجره أهله وأهل ليلي وعادوا إلى ديارهم فقد تفقّدهم
في اليومين الأخيرين حيث عيّن لهم المواقع والمخابئ ليستنصرهم
ويجنّدهم للغارة فرأى مواطنهم قاعاً صفصفاً فعجب من رحيلهم
دونه ثم قال لقد غبت عنهم طويلاً فظنوني قد متّ أو افترسني
بعض الوحوش .

وبقي البرّاق ويلي طائراً بهما الجواد لا يتكلمان ولا
يستريحان حتى بلغا مدينة «الكرخاء» وهي الفاصل بين حدود
الفرس وديارات العرب فعبراها لا يلويان على أحد ولا يحفلان
بالناس ينحوض فيهم الجواد وتفرّقهم ضربات حوافره .

وما زال البرّاق ويلي على مثل هذه الحال من مسابقة
الرياح حتى اجتازا بلاد فارس وأوغلا في مراع العرب . وكانت
الشمس لا تزال ضاربة في كبد السماء فوقف جواده عند
رابية حالية بالعشب والشجر وقال :

— « لنسرح قليلاً فقد أمنا جانب الخطر وما إنخالك

يا ليلي إلا ناصبة متعبة . »

فقفزت ليلي إلى الأرض وترجل البراق وفكّ عن ابلحواد
أربطة السرج والأعنة وأطلقه يرعى الكلاً .

وقبل أن تنطق ليلي بحرف معبرة عما يزدخر في صدرها
من متباين العواطف وقبل أن يهمّ البراق بالخروج عن الصمت
إلى الإفضاء بما يختلج في جوانحه من شعور وما يتردد تحت
لسانه من كلم بعد تلك الأحداث الجسامُ بهتا كلاهما حين
لحا في الأفق سحائب من الغبار انجلت بعد قليل عن جماعات
من الفرسان لا يدرك الطرف آخرها مقبلة نحوهما تطوي البطاح
والتلال طياً سريعاً فخامرهما شيء من القلق والخوف وأسفاً على
أن ينتهي فوزهما المبين بوقوعهما ثانية في قبضة الخصوم
والأعداء .

وكان عامل القلق والخوف يصارعه في نفسيهما عامل
الأمل والطمأنينة فتلك الجموع التي تغدّ السير إليهما رأياها
آتية من ناحية جزيرة العرب لا من ناحية بلاد فارس وفي
ذلك مبعث على سكينه القلب واطمئنانه ولكن من تكون تلك
الجموع . أتراها قبائل إياد وأنمار الموالية للفرس أم قبائل
ربيعة ومن دار في فلكها .

كان ذلك الجيش الزاحف بجموع قبائل العرب ممن وإلى
ربيعة أو عادها . فمن فرسان ربيعة ومضر إلى بكر وتغلب إلى

طي وقضاة حتى إلى إياد وأنمار وما تفرّع على هؤلاء جميعاً
من بطون وأفخاذ فقد كانوا زاحفين إلى بلاد فارس ليمحوا عن
جبين العرب أجمع سبة العار في سبي ليلي وتعذيبها .

ولقد اجتمعت تلك القبائل والعشائر على استصراخ
النساء وصياحهن فإن لكيزاً وأبناءه وكليباً وأخوته وأخوة البراق
لما استبطأوا عودته إليهم وتفقدوه في النواحي التي اعتصموا بها
فلم يعثروا له على أثر قرّ رأيهم على أن يعودوا بمن معهم من
الفرسان إلى ديارهم لعل البراق يكون قد سبقهم إليها أو لعلهم
يفلحون في بث الدعوة للحرب وجمل القبائل طراً على القتال .

فلما قدموا بغنائمهم على أهلهم وليس معهم البراق ولولت
النساء وأعولت وما فرحت واحدة منهن بسلامة ولدها أو أخيها
أو زوجها مع فوات البراق وضربن كلهن الأستار دون
الرجال وعفرن الحدود وشققن الجيوب وقطعن الشعور وأقبلن
على العائدين ناديات لاثمات . وكانت أمّ الإغر أكثر
النساء تعبيراً لأخوتها ومن معهم من الرجال على تركهم البراق
ورجوعهم دون ليلي .

وأجمعت النساء على استصراخ القبائل وإيغار الصدور
فانبثثن فيها يصرخن : واذلاًه . واحرباه . ماتت نخوة العرب .
يا لافتضاح الحفريات . إلى غير ذلك من العبارات التي تضرم

الحماسة في القلوب فتثير الشجاع وتقوي عزم الجبان .
واتفق أن دارت قصيدة ليلي على ألسنة الركبان وهي القصيدة
التي تقول فيها :

ليت للبراق عيناً فترى ما أقاسي من بلاء وعنا

.....
قيّدوني غلّوني ضربوا موضع العفة مني بالعصا
فوصلت إلى الخزيرة وسرت في البيوت مسرى النار في
الهشيم فكانت ألّهوب الصدور ومِشْحَدُ العزائم فهبّ الرجال
من كل حذب وصوب وتنادوا لإدراك الثأر واستنجدوا بالقبائل
والعشائر قاصنيها ودانيها حتى بأمر اليمين عمرو بن ذي صهبان
فإذا هو مشغول بعروسه وعروسه التي زفّت إليه فأعرضوا عن
نجدته وساروا رجالاً ونساءً تحت راية كليب إلى أرض فارس
وهم ينشدون :

«نقود إلى البراق خيلاً شوازبا وأسدّاً أعدت للقراع قواضبا
أجبنا إلى البراق خير إجابة نقود إليه كالقداح سلاهما
عليها من القوم الكرام كتائبٌ هنالك تقف في المسير كتائباً»
ولما اقربوا من الرّبوّة التي وقف عليها البراق وليلي وبلغت
الأناشيد مسمعيهما يتردّد فيها اسم البراق تبساً كلاهما ابتسامة
حوت كل معاني البهجة والفوز وكانا حتى تلك الدقيقة لم

يرى من موضعهما ولا فتحا شفتهما بحديث من الأحاديث
على وفرة ما في نفسيهما من شؤون وشجون وإنما كانا شاخصين
ببصريهما إلى الأفق مطلعين طلع ذلك السواد المقبل مستوضحين
أمره لتقرّ في صدريهما البلابل .

وما هو أن يلمحاً راية كليب في الطليعة حتى يصيحاً
بصوت واحد :

— « هذا كليب وهؤلاء أهلنا . »

ويغمرهما الفرح الفياض ويقبل كل منهما على الآخر
يريد أن يضمّ حبيبه إلى صدره ويطنّي برّده العناق ونعيم
القبّل لواعج الشوق والحب فتقف ليلي جافلة وتمنع نفسها
ما تشتهي ويشتهي الحبيب فقد ذكرت أنها لا تزال عروس
أمير اليمن عمرو بن ذي صهبان اختطفها برد وهي في طريقها
إليه فليس من حرمة العفاف أن تمنح خدّها رجلاً غيره
ولو كان ذلك الرجل ابن عمها وحبيبها ومنقذها من السبي
والعار .

ويقضي جفوها على اندفاع البراق فيقف كأنه سمر
في مكانه وينعقد لسانه وتنحبس الكلمات في فمه وتتحطم عند
مجتمع شفّتيه فلا يقوى أن يقول لها إنها عروسه وإن أباه قد
زوجه بها وهي غائبة وأشهد على نفسه في العهد الشهود .

وتصل طلائع الفرسان إليهما فيفاجئون بأجل مفاجأة
وأعذبها ويصيحون في فرح وغبطة ودهشة .

— « ليلي والبراق . ليلي والبراق . »

ويطير الصياح من فم إلى فم حتى يمرّ بالأفواه كلها
فتسري في الجموع رنات البهجة والفرح تتخللها تغاريد النساء
ويشب لكيز إلى الأرض على كهولته ويندفع إلى ليلي يتبعه
أبناؤه فيضمّونها إلى صدره ويوسعها تقبلاً ويزاحمه عليها أخوتها
الثلاثة فيغمرونها بالقبلات .

ويهجم أبو البراق على ابنه والأخوة على أخيهام فيعانقونه
ويزاحمهم عليه كليب وأخوته فيشفون أنفسهم من الشوق إليه
والوجد عليه ثم ينقلبون إلى ابنة أختهم ليلي وينقلب كذلك
أبو البراق وأخوته إلى ليلي يطالعونها جميعاً بالتحية والتهنئة . ويقبل
على البراق ويلي صفوف الطليعة من الفرسان فيحيونهما ويهنئونهما
أصدق التهنئات .

وينبعث في تلك الأثناء صوت امرأة كانت قد نفرت من
المؤخرة إلى الطليعة وهي تصيح :

— « افسحوا لي في الطريق . افسحوا لي في الطريق . »

ليلي . ليلي . «

كان الصوت صوت أمّ الأغرّ فإنها كانت مع بقية

النسوة في مؤخرة الجيش فلم تكد أذناها تسمعان بليلي وعيناها
تكتحلان بشبح ليلي الواقفة على الرابية حتى حشت مطيتها إليها
مخرقةً صفوف الخيل زاحمةً مناكب الفرسان تكاد ترقص طرباً
على أجنحة الهواء. فتشب من الراحلة وتجري إلى ليلي وتجري
ليلى إليها فتعانقان وتتبادلان القبل في عبرات منهمة وشهقات
طوال .

وتحلّ رؤية الأبطال عقدة لسان البراق فيخاطب أهله
وأقاربه وأبناء عشيرته ورؤساء الأنصار بعد إذ عرف أنهم
اتحدوا على شدّ أزره واستنقاذ ليلي ويشكر لهم خالص محبتهم
وكریم نجاتهم وجميل إجماعهم على ركوب المخاطر والأهوال
في سبيله وفي سبيل انتشال ليلي من براثن الهون والعار .

ويعقد الزعماء مجلساً للشورى يتصدّر فيه البراق فتجتمع
كلمتهم على مواصلة الزحف إلى بلاد فارس واجتياح قراها
ودساكرها ومدنها ونهب كنوزها وسبي نساءها وإشاعة الدمار
فيها والحرب . وكان أكثر المتشاورين حماسةً إلى الغزو إياد
وأنمار تكفيراً عما فرط منهم من موالاة الأعاجم ومخالفتهم
ومحواً للعار الذي جلبه عليهم صنيع برد بن طريح الإيادي
فما كفاهم أن يعلموا من البراق أن برداً تكفل بجزائه سيف
البراق ولا شفع لديهم دون الكفارة ما قام به صريم وجبير

وأهلها من مسعى حميد ومروءة ونجدة .

وارفض المجلس على هذا الرأي فأنأخوا الرواحل وضربوا
الخيام وأطلقوا الجياد في المراعي التماساً للاستجمام واستعداداً
للغارة الكبرى يشنونها بعد يوم أو يومين .

وكانت الشمس قد مالت إلى المغرب وأرسلت إلى الكون
دمعتها الصفراء مودعة منتحبة وكان القوم يشهدون مصرعها
ويرون نعشها تحمله أكتاف السحاب إلى هوة العدم فإذا هم
يتحولون بأبصارهم إلى جهة أرض فارس على صوت قافلة
قادمة منها إليهم فتبينوها بعد قليل فعرفوا فيها صريماً وأهله
تحيط بهم غلمانهم وقيناتهم العربيات فتردد القوم في تحييتهم
لما كانوا يعرفونه في الرجل من توفر على خدمة الفرس ولكن
البراق ولى قطعاً عليهم أسباب التردد عندما خفوا إلى تحية
القافلة والترحيب بها وأعلنوا ما يحفظانه لصريم وزوجته من
يد كريمة وأنهالت ليل على الرقشاء تقبلها وتغمرها بالشكر
والثناء .

وكان صريم قد أنف من البقاء في فارس موالياً لملكها
وأهلها فعزم على التزوج بأهله إلى دياره وسلك إليها طريقاً
قصيرة يعرفها فوصل إلى ذلك الموضع في ساعات . وأخبر البراق
أن الفرسان الذين تعقبوه لما يشوا من إدراكه في بلادهم عادوا

من حيث أتوا . وأخبره أيضاً أن جبيراً سيظعن بأهله وزوجة شقيقه برد بعد أيام . فاستضاف البراق صريماً وزوجته فقربا أن يقضيا ليلتهما بين عشائر العرب على أن تستأنف قافلتها السير إلى ديار إياد في صباح غد . واعتذر صريم عن المشاركة في الغزو فما كان له أن يحارب قوماً وطئوا له أكناف الرزق والجاه وأحاطوه بالرعاية والإكرام فحسبه فراقهم والرحيل عنهم . فنزل البراق ونزلت معه العشائر عند رغبته ورأيه .

واجتمع كل رجل إلى أهله وأصحابه فأضرمت النيران ونصبت الأثافي ورفعت عليها القدور إعداداً لطعام العشاء والتقي في خيمة لكيز . وبنيه أخوه روحان وأبناؤه وفي مقدمتهم البراق وكليب وأخوته وأمّ الأغرّ التي ما فتئت تروح وتجيء في غير حاجة ولا سبب فرحة طروباً وشهد السامر أيضاً صريم وزوجته الرقشاء .

ودارت بينهم أفانين الكلام وشجون الحديث وكانت ليلي تصغي إلى الأحساديث ولا تصغي فقد كان ذهنها مشغولاً بمصيرها فما ذكر لها أحد أن أمير اليمن عمرو بن ذي صهبان قد استبدل بها عروساً أخرى . وبينما هي مطرقة مفكرة سمعت أباه يناديها فقالت :

— « لبيك يا أبت . » فقال :

— « عندما كنت في أرض فارس أقدمت على أمر لم
أستشرك فيه . » فقالت ليلي :

— « وأنّي لك أن تستشيرني وقد كنت بعيدة منك . وفي
أي أمر يا أبي . » فقال لكيز :

— « في أمر زواجك . »

فأشرق وجه ليلي ثم اربدّ فقد تنازع خاطرهما البراق
وأمر اليمين أما البراق فقد كان مشوقاً منذ التقى بلكيز إلى
مثل هذا الحديث فحقق قلبه طرباً فقالت ليلي :

— « وأي جديد فيه . » فقال لكيز :

— « ستعرفين . . . »

ونهض لكيز إلى أخيه روحان وقال :

— « هات يدك . » فقال روحان :

— « هذه يدي . » فقال لكيز :

— « لقد زوجت ابنتي ليلي بابنك البراق . » فقال

روحان .

— « وأنا زوجت ابني البراق بابنتك ليلي . » فقال

لكيز :

— « وهؤلاء جميعاً شهودنا . » فقال روحان :

— « ونعم الشهود . »

وانطلقت أمّ الأغرّ والرقشاء تزغردان وترقصان وتتواليان على
ليلي بالتهنئات والقبيلات . أما ليلي فكانت في عالم آخر من الأحلام
الحميلة ولا سيما بعد إذ عرفت أن أمير اليمن قد توارى من
طريقها .

وانتشر الخبر في مضارب القوم فهزّ القلوب والأسماع
وجلا لهم ليلة مرققة بالأفراح أكلوا فيها وشربوا وغنّوا ورقصوا
على رنّات المزاهر ونقر الدفوف .

وعندما ينصرف البراق ويلي في الهزيع الأخير من الليل
إلى خبائثهما رازحين تحت أثقال ذلك اليوم الحافل بالحوادث
الجسام مغمورين بفيض من الفرح يكاد يتفجر من صدريهما
يشعران بحاجتهما إلى أن يتنفسا ملء رئتيهما من الهواء الطلق
ونسيم الليل الندي . فيعرجان على روضة فيحاء يسيران فيها
على مهل عابثين بما يعترضهما فيها من أعواد النبات وغصون
الشجر طربين بحفيف الأوراق ووسوسة الزهر مالتين العين
من ضياء القمر مدّ طيلسانه الفضيّ على السهول والأكم
وعمم به ذوائب الأشجار .

ويقطع البراق حبل الصمت بينهما ويقول :

— « ما أسعدني بك يا ليلي وما أجمل الحياة بقربك وفي

جوارك وعساي أعود سالماً من غزوة فارس فأوفّر لك ما أنت

أهل له من السعادة والهناءة . » فقالت ليلي :

— « ستعود سالماً معافى وترجع مكلّلاً بغار النصر
والظفر فلو كان الحب جنة تُتقى بها المهالك فلك من حي
مثل تلك الجنة تصونك وترعاك أبد العمر . » فقال البراق :
— « أنت العمر يا ليلي وأنت ربيع الزاهي وأنت من
حياتي الروح والريحان ومن فؤادي نبضه الخافق وبإني لأقسم
بهذا القمر الذي يرقبنا ويسمع حديثنا وسرّ نجوانا لأقدّس
حبك ولأجعلك المخلوقة السعيدة التي تغار منها السعادة
نفسها . »

فاغرورقت عينا ليلي بدموع الفرح وقالت :

— « وأنت الأمل والفخر وأنت الحياة وبهجتها فوحي
هذا النسيم الذي أستنشقه لأصون حبك وأكون الأمة التي
تغار على رضاك وإسعادك فما مرّ بي يوم منذ عرفت هواك
إلا وأنت فيه شغل الفؤاد وحلم الخاطر . » فقال البراق :
— « هيا يا ليلي نوثق أسباب الحب فدونك ردائي فشقيه
ومزقيه ومكنيني من شملتك وقميصك أفريهما مزقاً لنضمن
بقاء الحب في قلبينا حتي آخر نسمة من نسمات الحياة . »
فقالت ليلي :

— « أما تعلّمتنا يا برّاق أن نضرب صفحاً عن مثل هذه

العادات والوساوس التي تخلق بها الناس . « فقال البراق :
 — « إن أليف الهوى يا ليلي تغريه الوساوس وتلعب بلبه
 الأوهام فما ضرنا لو رعيناهما . »

واحببت ليلي أن تجيبه إلى مبتغاه فعمدت إلى صدره
 فقطعته وإلى رداؤه فمزقته وعمد هو إلى قميصها فشقه وإلى
 كتفها فمزع عنهما غلائل الثياب وقطعها إرباً فبدت ليلي
 شبه عارية في ذراعيها العبلتين وصدرها الرضاح كأنها تجردت
 لتستحم بأشعة القمر . فراغ نظر البراق لدى رأيته ذلك التمثال
 من المرمر الحي فصاح مأخوذاً :

— « آه يا زوجتي الحبيبة . » فصاحت هي فيه :

— « آه يا زوجي الحبيب . »

فضمها البراق إلى صدره وطوقت ليلي عنقه بذراعيها
 وتوارى القمر في تلك اللحظة وراء ستار من الغيوم فتبادلا
 في غيبة القمر قبلة طويلة أودعاها كل ما يختلج في قلوبهما من
 لواعج الحب ونوازع الحنين . . .

افلاذنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب في جميع مراحل النمو
المتعة والثقافة وسمو النفس .

١٢	١٠	عمرون شاه
١٢	٢	مملكة السحر
١٢	٣	كريم الدين البغدادى
١٢	٤	آلة الزمان
١٢	٥	الأمير والفقير
١٢	٦	كتاب الأدغال
	٧	بينوكيو
	٨	نبوءة المنجم
	٩	روبن هود

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو ح

Bibliotheca Alexandrina



0678617

36
11a